شرح معاني الصلاة

تأليف

د. ماهر بن ياسين الفحل

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ ــ ٢٠١٩م

شرح معاني الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فإني أحمد الله ﷻ أنْ مكَّنني من الانتهاء من هذا الكتاب (شرح معاني الصلاة) على خير وعافية، وقد عاش معي الكتاب طويلاً على الرغم من أنَّ حجمه ليس بكبير، ولكنَّ المادة مهمةٌ، ولم تقصد بالتصنيف في خصوصها فيما أعلم. وقد شرعتُ في هذا الكتاب وأنا في العراق في مدينتي المحبوبة الرمادي، وكتبتُ شيئاً منه في تنقلاتي أثناء التهجير القسري الذي مرّ ببلدنا الجريح، ثمَّ استقر بيَ المقام في مدينة (غازي عينتاب) وهي مدينة العيني شارح الصحيح، وقد فتح الله لي فيها من الخير والبركة ودروس العلم ما أُؤَمّل أنْ أشرح فيها الكتب التسعة بصوتي.

وعوداً على بدْء؛ فإني شرعتُ بتأليف الكتاب بعد مقتل ولدي الحارث يرحمه الله، إذ خرج من الدنيا ولم يخلف شيئاً من حطامها إلا جهاز حاسوبه الذي اشتراه من خالص ماله، فطبعتُ الكتاب به عسى أنْ يناله الأجر والثواب كلما قرأ الكتاب قارئٌ أو انتفع به منتفع، وبقيتُ سنوات أزيد على الكتاب وأحذف منه حتى استوى سوقه وتمَّ، ثمَّ أحلتُ المادة المكتوبة إلى أحد أصدقائي وهو الشيخ عبد الرحمٰن أحمد العبدلي فقرأ الكتاب وراجعه وانتفعت بشيء من ملحوظاته فجزاه الله خير الجزاء، ثمَّ أحلت الكتاب إلى المهندسين: أمجد آل جعفر وعبد الله آل جعفر، وهما من خيار أهل العلم والفضل ـ أحسبهم والله حسيبهم ـ وقد دقّقا الكتاب تدقيقاً حسناً، وأفادا بكثير من

الفوائد والعوائد، وأنا في كل يوم أدعو لمن نفعني أو علمني أو أحسن إليَّ؛ فأسأل الله أنْ يجازي هؤلاء الثلاثة خير ما يجازي أولياءه.

وهذا الكتاب يُعلِّمُ المسلم الصلاة على هدي النبي ﷺ مع بيان مقاصد الأعمال والأذكار في الصلاة، وهذا من رفع ذكر النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، قال الشافعي في الرسالة: (أخبرنا ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]، قال: لا أذكرُ إلا ذُكِرتَ معي: أشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

يعني ـ والله أعلم ـ: ذكره عند الإيمان بالله والأذان، ويحتملُ ذكره عند تلاوة الكتاب، وعند العمل بالطاعة، والوقوف عن المعصية)[(١)].

فالمصلي من أول صلاته إلى آخرها يستحضر الإخلاص والمتابعة، والذي يتابع سُنَّة النبي ﷺ ينال الخير العظيم، فالحريص يجتهد أنْ يكون على هدي النبي ﷺ، توحيداً وعملاً وإحساناً، وتأمل ما أعطاه الله لنبيِّه ﷺ إذ قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى]؛ أعطاه:

١ ـ النبوة. ٢ ـ والرسالة. ٣ ـ والشمائل الحسنة. ٤ ـ والسمعة الطيبة. ٥ ـ والذكر الجميل. ٦ ـ والأصحاب الأفاضل. ٧ ـ والعلم النافع. ٨ ـ والعمل الصالح. ٩ ـ والمجد. ١٠ ـ والدولة. ١١ ـ والشفاعة العظمى. ١٢ ـ والشفاعة الخاصة. ١٣ ـ والكوثر. ١٤ ـ والوسيلة. ١٥ ـ ويعطيه ما لا يخطر على بال، ولا يعلمه أحد ولا يحيط به عقل.

فالمسلم يسعى إلى أنْ يكون على سنة النبي ﷺ حتى يسعد في الدنيا والآخرة، ولما يقف المسلم في اليوم خمسة أوقات يصلي على هدي النبوة؛ فإنَّ هذا يدفعه إلى أنْ يكون على هدي النبي ﷺ في جميع أعماله.

والصلاةُ تصلح حال القلب وتجعله متعلقاً بالله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (القلب إنَّما خلق لأجل حب الله)[(٢)]. فالصلاة تصلح حال القلب وتجعله على ما يحب الله حينما يؤدي المؤمن الصلاة على هدي النبوة.

(١) الرسالة (٣٧ و٣٨).
(٢) فتاوى (١٠/ ١٣٤).

والصلاة تعوّد المرء الاستعانة بالله، ومن استعان بالله استغنى به وافتقر إليه النَّاس. وفيها التوكل على الله، وهذان الأمران: الاستعانة والتوكل يتكرران في كل ركعة، وربُّنا قال: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، فانشغال الذهن فاعلاً أو مفعولاً في حقل الأذى شاغلٌ وجالبٌ ما فيه الضرر.

والصلاة من المعروف، والمعروف لا تمسُّه النَّار، قال الزهري: (استكثروا من شيء لا تمسُّه النَّار، قيل: وما هو؟ قال: المعروف).

والعبد في صلاته يُمهد لنفسه الخير، قال ابن رجب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم]؛ (يعني: أنَّ العمل الصالح يكون مهاداً لصاحبه في القبر حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد؛ بل كل عامل يفترش عمله ويتوسده من خير أو شر)(١).

والصلاةُ تهبُ العبد الإحسان؛ إذ فيها مناجاة الملك الديّان، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه).

والصلاة شأنها عظيم وفائدتها جليلة، ولا يُنال عظيم ثمرتها إلا بالمجاهدة والصبر والإخلاص والمتابعة، قال القرّافي: (شأنُ كل عظيمِ القدر أنْ لا يحصل بالطرق السهلة)(٢).

وكان السلف يحسنون الظن بمن كان حسن الصلاة، كما حصل لعمر بن عبد العزيز عندما اختار قائد شرطته، وقال يحيى بن أبي كثير: (خصلتان إذا رأيتهما في الرجل فاعلم أنَّ ما وراءهما خير منهما: إذا كان حابساً لسانه،

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٢٣١).
(٢) الذخيرة (٥/ ٢٩).

يحافظ على صلاته)[١].

والصلاة من أعظم ذخائر الأعمال، وقد امتثل يحيى بن معين قول الأخطل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمالِ[٢]

وفي الصلاة الحمد والاستغفار، وهما من المثبتات قال أبو العالية: (إني لأرجو أنْ لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه).

وهذا الكتاب ألَّفته نصيحة للأمة، قال الشافعي لتلميذه الربيع بن سليمان: (الموعظة للعوام، والنصيحة للإخوان، والتذكير للخواص منهم فرضٌ افترضه الله على عقلاء المؤمنين)[٣].

ولأنّ مقاصد النيّات من الفقه المهم كما قال ابن أبي جمرة: (وددت لو أنَّه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أنْ يعلِّم النَّاس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيّات ليس إلا)، فإنَّ معرفة مقاصد الصلاة ومعانيها مهم جدّاً كذلك، والمرء حين يعرف معاني الصلاة يجد حقيقة اللذة، قيل لأحدهم: ما الحياة؟ قال: أنْ تذوق لذة الصلاة.

وفي سورة هود جاء الأمر بالاستقامة، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود]. فالأمر بإقامة الصلاة جاء بعد الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الظلمة، وذلك أنَّ الصلاة توصل العبد بمولاه وتذكره بآخرته وتجمع مشاعر الحب والخوف والرجاء

(١) الصمت، لابن أبي الدنيا (٢٦٤).
(٢) تأريخ يحيى بن معين، رواية الدوري (٤١٩٨).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٨).

والهيبة فمن أتى بها كما ينبغي عرف ربه، ومن عرف ربه خافه، ومن خافه عمل بالأمر وانتهى عن المنهي، وهذا يمنعه من الركون إلى الظلمة أو تأييدهم أو موالاتهم.

وهذا الكتاب سوف أسعى لترجمته إلى أكثر من لغة إن شاء الله، وستتلوه أعمال أخرى إن شاء الله، وهي: (تعليم الصلاة مع الصور)، وكذلك (الوضوء المصوّر) مع شرح الكتاب عن طريق الشبكة والمقاطع المرئية إن شاء الله.

وقد اعتمدت في هذا العمل على الثابت عن النبي ﷺ، ليكون الكتاب على هدي النبوة امتثالاً لقوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(١)]. وقد اعتمدتُ على المصادر المعتمدة لدى أهل العلم متبعاً الطريقة المثلى في العزو وتوثيق المصادر من غير إخلال ولا إسهاب.

وبعد؛ فهذا كتاب **«شرح معاني الصلاة»** أقدمه للأمة راجياً الثواب من عند الله، وأنْ ينفع الله بهذا الكتاب نفعاً كبيراً، فأكرر شكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم عليَّ، وأدعو بالخير والبركة والعمر المديد والعطاء الدائم بالخير لأخي وقرة عيني أبي عمر محمد سليمان وفقه الله تعالى ونضّر وجهه في الدنيا والآخرة، وأسأل الله أنْ يُكمّلَ له طريق الوصول إلى مرضاته، وأنْ يجزل له المثوبة فقد شجعني على هذا الكتاب، وكان يستمع دروسي كل يوم، ويُعقب عليَّ بالفوائد والعوائد؛ فأسأل الله أنْ يجمع له سعادة الدنيا والآخرة، وأنْ يرحم والديه وأنْ يبارك له في الذرية والأهل والمال والعمل.

هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. ماهر ياسين الفحل

غازي عينتاب ٢٤ صفر ١٤٤١هـ

---

(١) صحيح البخاري (٦٣١).

ما معنى الصّلاة؟

أصل الصلاة في اللغة: الدعاء، فسمّيت الصلاة الشرعية صلاةً لاشتمالها عليه، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ادع لهم.

والصّلاة من بنات الواو، وتُجمع صلوَات، قال بعض أهل اللُّغة: اشتقاقها من رفعِ الصَّلا فِي السُّجُود. والصَّلا: العظم الذي عليه الأليتان، وهو آخر ما يبْلى من الإنسان.

أو لأنها صلة بين العبد والرب، فإنَّ العبد في صلاته يكون موصول القلب بربه.

وقيل: إنَّ أصلها في اللُّغة التعظيمُ، وسمّيت العبادةُ المخصُوصة صلاةً لِما فيها منْ تعظيم الربّ تبارك وتعالى. وقوله في التّشهّد: الصّلوات لله؛ أي: الأدعيةُ التي يراد بها تعظيم الله تعالى، هو مستحقّها، لا تليق بأحدٍ سواه. وأمَّا قولنا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمّد، فمعناه: عظّمْهُ في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإِبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمَّته، ومضاعفة أجْره ومثوبته. وقيل: المعنى لـمَّا أَمر الله سبْحانَه بالصّلاة عليهِ ولمْ نبْلُغ قدر الواجِب منْ ذلك أحلْنَاهُ علَى الله، وقلْنا: اللَّهُمَّ صلِّ أَنتَ على محمَّد؛ لأَنَّك أعلمُ بِما يليقُ به.

وصلَوات الرسول للمسلمين: دعاؤه لهم، وذكرهم، وصلَوات الله على أنبيائه والصالحين من خلقه: حسنُ ثَنائه عليهم، وحُسن ذكره لهم، وقيل: مغفرتُه لهم، وصلاةُ الناسِ على الميِّت: الدُّعاء، وصلاة الملائكةِ: الاستِغفارُ.

قال ابن الأَعرابي: (الصّلاة من الله رحمةٌ، ومن المخلوقين ـ الملائكةِ والإِنْسِ والجنِّ ـ: القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، والصلاةُ من الطّير والهوامّ: التّسْبيح)[(١)].

والصّلاة هي الّتي جاء بها الشّرْع منَ الرُّكُوع والسّجود وَسائر حدود الصّلاة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (والصلاة قرة عين المحبين، ولذة أرواح الموحدين، وبستان العابدين، ولذة نفوس الخاشعين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمة الله المهداة إلى عباده المؤمنين.

هداهم إليها، وعرّفهم بها، وأهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين، رحمة بهم وإكراماً لهم، لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه، لا حاجة منه إليهم؛ بل منَّةً منه وتفضلاً عليهم، وتعبّد بها قلوبهم وجوارحهم جميعاً، وجعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين وأعظمهما، وهو إقباله على ربه سبحانه، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعّمه بحبه، وابتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، وتكميله حقوق عبوديته ظاهراً وباطناً، حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه.

ولما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوة وأشباهها من داخل فيه وخارج عنه، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيّأ له مأدبة قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخلع والعطايا، ودعاه إليها كل يوم خمس مرات، وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة، ومنفعة، ومصلحة، ووقاراً لهذا العبد الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست في اللون الآخر، لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية، ويكرمه بكل صنف من أصناف الكرامة، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مكفِّراً لمذموم كان يكرهه بإزائه، ويثيبه عليه نوراً خاصاً، فإنَّ الصلاة نور وقوة في قلبه وجوارحه، وسعة في رزقه، ومحبة

---

(١) تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الهروي (١٢/ ١٦٦).

في العباد له، وإنَّ الملائكة لتفرح وكذلك بقاع الأرض وجبالها وأشجارها وأنهارها، تكون له نوراً وثواباً خاصاً يوم لقائه، فيصدر المدعو من هذه المأدبة وقد أشبعه وأرواه، وخلع عليه بخلع القبول وأغناه، وذلك أنَّ قلبه كان قبل أن يأتي هذه المأدبة قد ناله من الجوع والقحط والجدب والظمأ والعري والسقم ما ناله، فصدر من عنده وقد أغناه وأعطاه من الطعام والشراب واللباس والتحف ما يغنيه)[١].

والصلاة أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ...**»[٢].

كما إنَّ في الصلاة طاقة روحية فذّة تلهم الإنسان وتزوده بالإيمان والصبر فيستعين بها على هموم الدنيا وعلى كلّ ما يكدّر صفو حياته، فهي تنقي له قلبه وعقله وروحه من كل شائبة.

وهي أعظم فروض هذا الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وهي ميزان الأعمال عند الله يوم القيامة، فإن صلحت صلح سائر العمل، وهي وصية رسول الله ﷺ عند موته، وهي عبادة أنبياء الله من قبل رسولنا ﷺ، وهي النور التي تنور طريق العبد عند سيره إلى ربه، وهي النور الذي يكساه العبد يوم القيامة، وهي موطن قرب العبد من ربه في الدنيا والآخرة، وهي مخففة الأحزان، ومزيلة الهموم والغموم، وهي مكفِّرة الذنوب والخطايا، وهي منقلب عباد الله الصالحين إلى ربهم، وهي ملجأهم إليه في حياتهم الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وفيها حياة أرواحهم، وهي جنّة قلوبهم ونفوسهم، وهي أنسهم بربهم، وهي النعيم الدائم في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

(١) أسرار الصلاة لابن القيم (١٠٥).
(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

منزلة الصلاة

عندما ينظر المتفكّر في الآيات والأحاديث الواردة في بيان فضل الصلاة ومتعلقاتها، من شأنها، وحكم تاركها، وحالها في التشريع الإسلامي، يتبين له ما هي منزلة هذه الشعيرة في هذا الدين العظيم، وما هي مكانتها عند ربِّ العالمين، وفيما يلي بعض من هذه الأدلة:

١ ـ الصلاة عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، وهذه المنزلة لا يلحقها بها فرض من الفروض، ولا واجب من الواجبات، ففي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»[١].

قال المناوي في فيض القدير: (وعموده الذي يقوم به ويعتمد عليه هو الصلاة، فإنَّها المقيمة لشعار الدين، الرافعة لمنار الإسلام، كما إنَّ العمود هو الذي يقيم البيت، فهي العمل الدائم الظاهر، الفارق بين المؤمن والكافر)[٢].

٢ ـ الصلاة أول فريضة فرضت على المسلمين، مما يدل على عظم شأنها، ومما يدّل على ذلك أيضاً هو أنَّ الله تعالى لم يفرضها في الأرض ولا بواسطة؛ بل فرضت في السماء، من الله تعالى مباشرة إلى رسولنا ﷺ.

٣ ـ الصلاة هي أوّل ما يحاسب عليه العبد من عمله، فصلاح عمله وفساده بصلاح صلاته وفسادها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «**إنَّ أوَّل ما يُحاسبُ بهِ العبْدُ يومَ القيامة منْ عمله صلَاتُهُ، فإنْ صلُحَتْ فقدْ أَفلح وأَنجحَ، وإنْ فسدتْ فقدْ خاب وخسِر، فإنْ انتقص منْ**

(١) جامع الترمذي (٢٦١٦)، سنن ابن ماجه (٣٩٧٣).
(٢) فيض القدير، للمناوي (٤٣٧٣).

فريضته شيْءٌ، قالَ الرَّبّ ﷻ: انظروا هل لعبدي منْ تطوُّعٍ فيكمِّل بها ما انْتقصَ منَ الفريضة، ثمَّ يكون سائر عمله على ذَلك»[١].

فمن أراد النجاة يوم القيامة، وأراد صلاح صلاته وعمله، فعليه أن يحاسب نفسه على كل صلاة يصليها، فيتم جميع ما فيها: من الفروض، والشروط، والسنن، وأن يتمها بقيامها، وركوعها، وسجودها، وأذكارها، وخشوعها، ولا يبخس من ذلك شيئاً، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٤ ـ الصلاة آخر ما يفقد من الدين، فإذا ذهب آخر الدين لم يبق منه شيء؛ فعن أبي أُمامةَ الباهِلِيِّ رضي الله عنه، عنْ رسول الله ﷺ، قالَ: «**ليُنْقضَنَّ عرى الْإِسلام عُرْوةً عُرْوةً، فكلَّما انتقضتْ عروةٌ تشبَّث النَّاس بالَّتي تليها، وأَوَّلُهنَّ نقضاً الحكم، وآخرهنَّ الصَّلاةُ**»[٢].

وعنْ عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «**أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى الصلاة، ورب مصل لا خير فيه**»[٣].

عرى الإسلام: جمع عروة، وهي في الأصل ما يستمسك به، ويستوثق، فاستعبر لما يستمسك به من أمر الدين، ويتعلق به من شعب الإسلام، فبيَّن أنَّ الدين ينقص شيئاً فشيئاً، وأنَّ شعائر الدين يتركها الناس بتقادم السنين، وأنَّ الصلاة آخر ما يبقى من هذه الوثائق التي يستوثق بها الناس للوصول إلى النجاة.

٥ ـ الصلاة آخر وصية أوصى بها النبي ﷺ أمته، فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: كان من آخر وصية رسول الله ﷺ: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، حتى جعل نبي الله ﷺ يجلجلها في صدره وما يفيض بها لسانه[٤].

(الصَّلاة) بالنَّصب، علَى تقدير فعلٍ؛ أي: الْزَموا الصَّلاة أَو أَقيموا، أَو

(١) جامع الترمذي (٤١٣)، سنن النسائي (٤٦٤).
(٢) مسند أحمد (٢٢١٦٠)، صحيح ابن حبان (٦٧١٥).
(٣) المعجم الصغير، للطبراني (٣٨٧).
(٤) مسند أحمد (٢٦٤٨٣)، سنن ابن ماجه (١٦٢٥)، السنن الكبرى، للنسائي (٧٠٩٧).

احْفظوا الصَّلاة بالمواظبة عليها، والمداومة على حقوقها، وهذا فيه بيان أهمية الصلاة في الشريعة، ومدى اهتمام رسول الله ﷺ بهداية الناس وإرشادهم إلى ما يقربهم إلى ربهم.

٦ ـ مدح الله القائمين بها ومن أمر بها أهله فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

قال ابن كثير في تفسيره: (هذا أيضاً من الثَّناء الْجميل، والصِّفة الْحميدة، والخلَّة السَّديدة، حيْث كان مثابراً على طاعة ربِّه، آمراً بها لأَهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ الآية [التّحريم: ٦]؛ أَيْ: مروهم بالْمعروف، وانْهوْهم عن المنكَرِ، ولا تدعوهم هملاً فتأْكلهم النَّار يوم القيامة، وقد جاء في الْحديث، عن أَبي هريْرة رضي الله عنه، قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ الله رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَح فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ الله امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ**»[١].

وعنْ أَبي سعيدٍ، وأَبي هريْرة رضي الله عنهما، عن النَّبيّ ﷺ قالَ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ الله كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**»[٢])[٣].

٧ ـ ذمَّ الله المضيِّعين لها، والمتكاسلين عنها، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ

(١) مسند أحمد (٧٤١٠، ٩٦٢٧)، سنن أبي داود (١٣٠٨، ١٤٥٠)، سنن النسائي (١٦٠٩)، صحيح ابن حبان (٢٥٦٧).
(٢) سنن ابن ماجه (١٣٣٥)، سنن أبي داود (١٤٥١)، صحيح ابن حبان (٢٥٦٨).
(٣) تفسير ابن كثير، تفسير سورة مريم [آية: ٥٥].

﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢﴾ [النساء].

٧ ـ أعظم أركان الإسلام، ودعائمه العظام، بعد الشهادتين؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»(١).

٨ ـ فرضت خمسين صلاةً، وهذا يدل على محبة الله لها، ثم خفف الله ﷻ عن عباده ففرضها خمس صلوات في اليوم والليلة، فهي خمسون في الميزان وخمس في العمل، وهذا يدل على عظم مكانتها.

٩ ـ افتتح الله أعمال المفلحين بالصلاة، واختتمها بها، وهذا يؤكد أهميتها، قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون].

١٠ ـ أمر الله النبيَّ محمداً ﷺ وأتباعه أنْ يأمروا بها أهليهم، فقال الله ﷻ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٨، ٤٥١٥)، صحيح مسلم (١٦).
(٢) مسند أحمد (٦٦٨٩)، سنن أبي داود (٤٩٥).

١١ ـ أمر النائم والناسي بقضاء الصلاة، وهذا يؤكد أهميتها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**»[1]. وفي رواية لمسلم: «**من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها**».

❁ ❁ ❁

(١) صحيح البخاري (٥٩٧)، صحيح مسلم (٦٨٤).

مقالات في الصلاة[١]

أولاً: صلاة جوف الليل، وصلاة الفجر:

إنَّ الصلاة في جوف الليل الآخر لا تعدلها أية صلاة، إنها الوقود لصحة القلب وحياته، فهي المنطلق والأساس في كل ما يقال في تزكية القلب، وتحقيق النجاح في الحياة، بدونها يصبح القلب ضعيفاً، لا يمكنه القيام بما أنيط به من واجبات عظام، ومهام ثقال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل]، لذا فإنَّ ترك الصلاة في جوف الليل هو من أعظم الأسباب فيما أصاب الناس من وهن وضعف وانحراف، لماذا؟ لأنَّهم بهذا أضعفوا قلوبهم، وتبعها كل ضعف، فلمّا كانت قناعة الناس وإيمانهم بأهمية هذا العلاج ضعيفة، كان الحاصل منهم التهاون به، حتى من بعض طلاب العلم والدعاة والصالحين.

إنَّ من أسوأ العادات التي ابتلي بها مجتمعنا اليوم، عادة السهر بعد صلاة العشاء، والتأخر في النوم إلى منتصف الليل، أو قريباً من الفجر، ثم النوم وتضييع أهمَّ وأثمن وأغلى موارد قوة القلب والنفس، ومع وضوح الأدلة وكثرتها في هذه المسألة وقوتها، إلا أنك ترى الكثير غير مستعد لتغيير هذه العادة، والالتزام بالنوم المبكر، والاستيقاظ قبل الفجر، والصلاة في جوف الليل، وهذا شيء عجيب، تقول له هذا هو العلاج، وهو يعاني من المرض

(١) هذا الفصل مستفاد بتصرف من كتاب: الصلاة سر النجاح في الحياة للشيخ خالد عبد الكريم اللاحم.

ويتألم، ثم لا تمتد يده لأخذ العلاج، فسبحان من بيده قلوب العباد، وإليه المنتهى في هدايتهم إلى الخير والرشاد.

ومن نظر في واقع النّاس اليوم، فإنَّه سيجد أنَّ هذه العادة لم يقتصر ضررها على ترك صلاة آخر الليل فحسب؛ بل امتد إلى ترك صلاة الفجر، أو التثاقل عنها، وصَاحَبَ هذا النقص في صلاة الفجر زيادة المشكلات في المجتمع، وحصول الوهن والضعف في النفوس، حتى إنَّ معدلات الإنجاز عند كافة شرائح المجتمع أصبحت مقلقة، سواء في ذلك الطالب أو المعلم أو الموظف أو الطبيب أو المهندس أو العامل.

ولو صلى الناس اليوم صلاة الفجر، كما كان يصليها النبي ﷺ، فإني على يقين بإذن الله تعالى، أنَّ واقعنا سيتغير إلى الأفضل والأحسن، وتختفي كثير من مظاهر الفشل والنقص شيئاً بعد شيء، فإنَّ الخير يجذب بعضه بعضاً، والشر كذلك، يجر بعضه بعضاً، فالإنسان إمَّا في صعود أو هبوط، لا يمكنه التوقف أبداً، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر]، وهذه سُنَّة الحياة.

ثانياً: الصلاة أعلى استثمار لرمضان وليلة القدر:

إنَّ المتأمل في هدي النبي ﷺ قولاً وفعلاً يجد أنَّ الصلاة هي أهمَّ ما يميز به الأوقات الفاضلة، وفرص العمر الثمينة؛ كرمضان عامة، والعشر الأواخر، وفيها ليلة القدر خاصة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١)، وعنه رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢)، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»(٣)، لذا فإنَّ هذا أهم عمل يختص به رمضان، وتستغل به ليلة القدر، إنَّه الاجتهاد في الصلاة معظم الليل.

(١) صحيح البخاري (٣٧)، صحيح مسلم (١٨١٥).
(٢) صحيح البخاري (١٩٠١)، صحيح مسلم (١٨١٧).
(٣) صحيح البخاري (٢٠٢٤).

وفي العشر الأواخر من رمضان سنَّ النبي ﷺ لأمته الاعتكاف، ليكون معيناً على ذكر الله، وكثرة الصلاة التي تقرب إلى الله ﷻ، وتزيد الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثالثاً: الصلاة حصن المسلم:

حين طُرِد الشيطان من الجنة، أقسم بعزة الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، لماذا استثنى المخلصين؟ الجواب معلوم: لأنَّه لا يقدر عليهم، وليس له عليهم سلطان، كما أخبر الله بذلك حيث قال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء]، والصلاة القائمة تحقق الإخلاص الذي يحفظ العبد ويحصّنه من الشيطان، وتسلّط الشيطان؛ يعني: نقص إخلاص العبودية لله، والصلاة تحقق إخلاص العبودية لله ربِّ العالمين، إذاً الصلاة حرز وسياج قوي، يحفظ ويحمي العبد من كيد الشيطان، هذا هو التشخيص، وهذه هي المعادلة في هذه القضية.

فالصلاة متى أديت بالكيفية الصحيحة، والكمية الكافية، فإنَّ الشيطان لا يجد له إلى قلب صاحب هذه الصلاة سبيلاً، ولا يكون له على نفسه سلطان أبداً.

فهذا هو علاج النفس، وشفاء القلب، وهو بين يديك، فإن شئت فاجتهد فيه، تحصل على الحصانة والمناعة، وإن فرطت وقصرت في المجاهدة والتدريب، فاعلم من أين أتيت، وما سبب ضعفك، ومصدر بلائك، ومتى تعبت من حالك، وأغلقت في وجهك الأبواب، فتذكر هذا العلاج، والتزم به يشفيك الله من كل داء.

رابعاً: الصلاة والنصر:

الصلاة هي وسيلة النصر، أعني: الصلاة التي تحقق التوحيد وإخلاص العبودية لله ربَّ العالمين، فالنصر يتنزل على المخلصين.

هذه الصلاة هي أمضى سلاح في هذه الحياة، وكل سلاح عداها فلا يعد شيئاً في مقابلها، إننا قبل أن نفكر أو نشتغل بالأسلحة المادية يجب أن نخطط ونسعى جاهدين إلى زرع هذا السلاح في نفوس أفرادنا فرداً فرداً، فمتى تحقق ذلك فإنَّ النصر حليفنا بإذن الله، فالنصر مع الصبر، والصبر من أعظم ثمار الصلاة.

إنَّ الصلاة هي السلاح الذي يجب أن يسعى المسلمون إلى التسلح به، وهي السلاح الذي يرهب الأعداء، ويقذف في قلوبهم الرعب، فلا تنفعهم أسلحتهم شيئاً.

لقد وعد الله عباده المخلصين بالنصر والتمكين، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور]، هذا هو الشرط، وهذا هو الجزاء، فالمعادلة واضحة وقاطعة، والوعد من العليم القدير أكيد مضمون، لكن يبقى العمل ومن يحقق الشرط المطلوب، وهو إخلاص العبودية لله، وحده لا شريك له، والصلاة هي الوسيلة إلى إخلاص العبودية لله ربّ العالمين، فمتى كانت الصلاة صلاة خالصة، فإنّ إخلاص العبودية لله حاصل معها، ولا بد أن يكون النصر جزاء المخلصين.

لم تكن كثرة العدد وقوة السلاح يوماً ما هي المعيار الفاصل في القوة؛ بل القاعدة في هذا الأمر قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

لقد كان النَّبيُّ ﷺ يلجأ إلى هذه الصلاة في شدائد الحياة كلها، ومن أشدها حين ملاقاة الأعداء، وكان هذا دأبه ﷺ في كل غزواته، فكانت الصلاة هي السلاح الذي يستنزل به النصر من ربه، ويستدفع به شر أعدائه

ومكائدهم، فكان الله ينجيه ويحفظه في كل مرة، وهذا العون والمدد حاصل لكل من تأسى بالنبي ﷺ، وسلك طريقه، واستن بسُنَّته.

خامساً: الصلاة والرزق:

إنّ الله تعالى قد ربط الرزق بالصلاة في أكثر من آية في كتابه الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه]؛ أي: جاهد نفسك على فعلها، وإتقانها، وإحسانها، وكثرتها، ولا تضيّع وقتك وحياتك في البحث عن الرزق وتأمين المستقبل، فالله لم يخلقك لتتعب وتشقى في طلب رزقك وحسب، فقد كفله لك حين تصطبر على الصلاة، فمتى رعيت هذه الصلاة، وقمت بها كما يجب، فإن رزقك مكفول، كما ورد في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً**»[١].

إذاً؛ فإنَّ ارتباط الصلاة والعبودية بالرزق في آيات القرآن عجيب ودقيق، وكلها تؤكد هذا المعنى، ولا يفهم من هذا الكلام الدعوة إلى البطالة، أو ترك السعي في مناكب الأرض بحثاً عن الرزق، وإنَّما هي أولويات، فالصلاة أولاً، ولها الصدارة في احترام مواعيدها، ومنحها الوقت الكافي فرضاً ونفلاً، ثم بعد ذلك في الوقت متسع لطلب الرزق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾ [المزمل].

سادساً: الصلاة والتدريب:

لا تظنّ أنَّ ما تسمع عنه من اجتهاد الصالحين في الصلاة، وحبهم لها، وشوقهم إليها، وتلذذهم بها، يأتي طفرة أو فجأة؛ بل إنَّ هذا يحتاج إلى جهاد ومجاهدة ومصابرة، ويسبقه ابتلاء وتمحيص واختبار، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠٥)، سنن ابن ماجه (٤١٦٤)، جامع الترمذي (٢٣٤٤)، صحيح ابن حبان (٧٣٠).

ﭐلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]. فلا تتوقع أن تجد ما وصف في هذا الكتاب من أول مرة، ولا يصرفنك عما ذكر، ويحصل عندك الشك والريب ألّا تجد؛ بل إنَّ ما ذكر ليس مصدره ومستنده التجارب والأخبار والأحوال، إنَّما مصدره قول الكبير المتعال، وهو أصدق القائلين، وقول رسوله ﷺ الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى، فالثقة بما وصف ثابتة وقوية، لكن يبقى الأمر، من يفوز ويصل، ومن ينقطع به الطريق، ويحال بينه وبين الجائزة العظمى، والمنحة الكبرى والمنة العليا.

فالأمر يحتاج إلى استعانة بالله تعالى، وقوة توكل عليه، وكثرة دعاء وإلحاح آناء الليل والنهار، مستمر لا يفتر ولا ينقضي ولا ينتهي، حتى يصل إلى المطلوب ويظفر بالمرغوب.

لذا؛ فإنَّ المجاهدة في الصلاة لجمع القلب على الله تعالى، ولتركيزه على تدبر ما تقرأ وما تقول، يحتاج إلى بذل جهد مضاعف، واهتمام كبير، ولا يصح أنْ يطلق المصلي لنفسه العنان تفكر كيف شاءت وبما شاءت، وتسرح وتجول في كل واد؛ بل عليه أن يجاهدها، وأن يردها كلما همَّت بالشرود، أو حاولت الخروج، ومع التكرار فإنَّها تُرَوَّض وتذعن وتتعود على الاستقرار والاجتماع بإذن الله تعالى.

سابعاً: الصلاة قبل البرامج والدورات:

نسمع في هذه الآونة كثرة المطالبة بحضور الدورات من أجل علاج المشكلات التربوية والنفسية، أو بناء وتغيير الذات، وأقول: إنَّ العلاج لمثل هذه الأمور في الصلاة قبل أن يكون في البرامج والدورات، فمن يريد علاج مشكلاته، وإصلاح نفسه وتربيتها، فعليه بالصلاة، والمجاهدة في أن تكون صلاة تامة كاملة.

أمَّا الصلاة التي يصليها اليوم كثير من المسلمين، فهي صلاة ناقصة، وليس العيب في الصلاة، إنَّما العيب من المصلي الذي لم يصلِّ صلاة تامة،

وهذا الكلام يقال جواباً لمن يقول: إنَّنا نرى كثيراً من النواقص والظواهر السيئة عند المصلين.

كل المشاكل الأخلاقية والسلوكية سببها إهمال الصلاة، والتفريط فيها، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم]، إنه متى تم بناء الشخصية القوية من خلال الصلاة، فإنَّ بناء المهارات الأخرى يكون أسهل وأسرع بمرات كثيرة مقارنة بضعيف الشخصية؛ لأنَّ صاحب الشخصية القوية يتعلم أسرع، والتزامه قوي، وجديته عالية، وهذه أمور بلا شك تختصر كثيراً من الجهود والأوقات، فالصلاة هي القاعدة، وهي السقف لكل ما يريده، الإنسان في هذه الحياة، هي أولاً وآخراً، إنَّها نعمة عظمى منَّ الله بها على عباده، فمن استفاد منها تنعم وسعد في الدنيا والأخرى، ومن أهمل وفرَّط شقي في دنياه وآخرته.

ثامناً: التربية هي الصلاة:

التربية: هي تنمية الشيء حالاً بعد حال حتى يبلغ كماله، هذا باختصار هو التعريف العملي للتربية وبيان حدودها، وكل ما عدا ذلك من أمور التربية فهي أمور فرعية، تأتي تبعاً لهذا الأصل العظيم، الذي يصنع روح الإنسان، ويربي نفسه تربية يسهل معها كل تربية، ويمكن معها غرس كل فضيلة، واقتلاع كل رذيلة بيسر وسهولة.

أما من يفقد التربية على الصلاة، فيصعب ملاحقة مفردات سلوكه، وتعديل أخلاقه وتصرفاته.

والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا البيان من ربِّ العالمين للمعنى المراد هنا، نعم، التربية هي الصلاة، لكنَّ البعض قد يجهل كيفية التربية بالصلاة، والبعض ربما ينقص فقهه وفهمه لهذه القضية، فيرى أنَّ الصلاة مجرد عبادة من العبادات تؤدى حسب تعليمات معينة وانتهى الأمر.

والتربية على الصلاة يكون بأمرين:

الأول: لماذا أصلي؟ ويمثل جانبه التطبيقي معجم مقاصد الصلاة.

الثاني: كيف أصلي؟ وهذا محله تعلم فقه الصلاة.

ولا يصح في التربية الفصل بين القرآن والصلاة، فيكون حفظ القرآن في جهة، والصلاة في جهة، كما يفعله بعض المربين في الحلقات؛ بل هما لحمة واحدة، كتلة واحدة، سبيكة واحدة، إنَّ التربية يجب أن تسير على الاثنين معًا وفي مسبك واحد.

ولما كانت التربية هي الصلاة فقد كان رسول الله ﷺ يأمر النّاس بأن يعلموا أولادهم الصلاة، وأن يربّوهم على المحافظة عليها، كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**...»[(١)].

تاسعاً: الصلاة نصفان:

الصلاة نصفان: نصف لله؛ أي: ثناء على الله تعالى، وتعظيم له وتقديس، ونصف للعبد؛ أي: تضرع واستكانة وذل وخشوع وإخبات وتمسكن ودعاء.

والفاتحة جزء من الصلاة، وقد ذكر الله تعالى أنه قسمها نصفين، نصف له سبحانه، ونصف لعبده، وقد بيّنا هذا في موضعه، فاستحضار هذا المعنى يجعل الصلاة أكثر عمقاً وفقهاً، ويجعل المصلي يركز ويعي ما يقول، فكل ما يقوله المصلي في صلاته لا يخرج عن هذين القسمين، وفي الصلاة أمور، **منها**: قراءة القرآن بتدبر في القيام، وتعظيم وتقديس الله في الركوع، والتضرع وكثرة الدعاء في السجود، فلا بد من هذه الأمور معاً، ونقص أحدها وإهماله يؤدي إلى موت الصلاة أو ضعفها، والمقصود أنَّه لا بد من التوازن بين هذه الأمور الثلاثة، لتكون الصلاة صحيحة سويَّةً حيَّةً نابضةً قويةً مؤثرةً.

وهكذا كانت صلاة النَّبي ﷺ، فكان قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه قريباً من السواء.

❁ ❁ ❁

---

(١) مسند الإمام أحمد (٦٧٥٦).

الصلاة قرة عين

قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(١)]، قال الْأَزهريّ: (معنى قرَّة الأَعيُن: أَنْ يُصادف قلبُهُ مَنْ يرضاه، فتَقرُّ عينُه به عن النَّظر إِلى غيره).

إذا علم الانسان أنَّ الصلاة هي حق لله محض على عباده، وعلم أنَّه مطالب بأداء الحقوق إلى أهلها، وعلم أنَّ حق الله أولى بالأداء، فعنِ ابْنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: جاء رجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: يا رسُول الله إِنَّ أُمِّي ماتتْ، وعليْها صوْمُ شهْرٍ، أَفأَقضيه عنها؟ قال: «**لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَهُ عَنْهَا**»، قال: نَعَمْ، قَالَ: «**فَدَيْنُ الله أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى**»[(٢)]، وعلم أنَّه اذا وقف بين يدي ملك الملوك سيسأله أول ما يسأله عن هذا الحق العظيم، كيف كان حالك معه؟ وكيف أدّيته؟ وكيف كانت صلتك بربك من خلاله؟

فإذا كان الإنسان عبداً لله مخلصاً، ومحبّاً لله طائعاً، ومشتاقاً للقائه مفعماً، لكنّه قد شغلته الدنيا بأفراحها وأتراحها، وبخيرها وشرها، وبنعمها ونقمها، فحمل هم ذلك وغمه في قلبه، فلا بد له من الراحة، وهذه الراحة لا تكون إلا عند من خلق القلب، وعلم مداخله ومخارجه، وعلم ما يضره وما ينفعه، وعلم ما يسره وما يحزنه، فإنَّه يتجه للقاء ذلك الخالق العظيم العليم، الذي بيده مفاتيح تلك القلوب، ويلجأ إليه بأحب أمر إليه، وينطرح انطراح المحب الخائف، ويقبل على ربه بقلبه وجوارحه، ويؤدي هذا الحق كما

(١) مسند أحمد (١٢٢٩٣)، سنن النسائي (٣٩٤٩).
(٢) صحيح البخاري (١٩٥٣)، صحيح مسلم (١١٤٨).

أراد الله تعالى، وكما علمنا رسوله الأمين ﷺ، حينها سيعرف أنَّ الصلاة هي حظه من الدنيا، وهي موقفه بين يدي ربّ العالمين، الذي غطّاه بالنّعم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وهي النُّور في الحياة الدنيا، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفي قبره، وعلى الصراط ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، وحين المثول أمام ملك الملوك، وقد جاء في الحديث: «**وَالصَّلَاةُ نُورٌ**...»[١]. وثمرتها الإقبال على الله تعالى، وإقبال الله على العبد، فإذا استشعر الإنسان هذا الشعور، ستكون الصلاة حينها قرة عين له، كما كانت لسيده ورسوله ﷺ، وستكون هي راحته من متاعب الدنيا ومشقاتها، ولسان حاله يقول: يا بلال أرحنا بالصلاة.

وهذا بعض مما علِمه رسول الله ﷺ من أمر الصلاة، فقام حتى تفطرت قدماه، وعندما سئل عن ذلك قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[٢]، فخاطبه ربه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل]، وقال: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، وحال أَصحاب رسول الله أَنَّهم إذا أُقيمت الصلاة، انصرفوا حتى كأنَّهم لا يعرف بعضهم بعضاً، وجاءت أخبار كثيرة عن الصحابة والتابعين والصالحين من سلفنا أنَّهم إذا حضرت الصلاة تغيروا لها، وانشغلوا بها، فبعضهم يكون كالخشبة في الصلاة، وبعضهم ترتعد فرائصه، وبعضهم يتغير لونه، لما علموا من أمر الصلاة مما جهله غيرهم، فتجد منهم من يقوم الليل في ركعة، حتى ينادي منادي الفجر، وكثير منهم من يصلي الفجر بوضوء العشاء، ومنهم من يسجد من المغرب حتى ينادي منادي العشاء، ومنهم من تُقْطع قدمه وهو في الصلاة، لا يأْبَه لما قطع منه، منشغلاً بما هو أَولى، ومنهم من تصيبه أَسهم العدو، فيقول: كنت أقرأ كذا من القرآن، فكرهت أنْ

(١) صحيح مسلم (٥٥٦).
(٢) صحيح البخاري (١١٣٠)، صحيح مسلم (١٨١٩).

أقطعه، وغير هذا من أحوال فيها عجب عجاب لو ترى عيناكا.

قال ابن خمير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فتأمّل أَيها العاقل الموفق لهذه العلقَة الثمينة، والأمَانة المصونة، والحظوة الضمينة لَك بالسلامة والعناية المكينة، وَشد عَلَيْهَا كف الضنين، واحفظها حفظ المؤتمن الْأمين، ذخيرة ليَوْم الافتقار، وجنة بَيْنك وَبَين النَّار، لَكِن إياك أَيُّها الْمصلِّي مع ما تقدم لك أَنْ يبسطك الرَّجاءُ بكثرة الأجور، فتهوي بك فِي دركات الْغرُور، وعالج هواك، بأَن تعلم أَنَّ حصُول الْفضل لَا يصح إِلَّا بأَربعة شرُوط، وهِي:

١ ـ الْعلم بتفاصيل أَحْكامها.

٢ ـ والإخلاص فِي كل ظاهر مِنْهَا وباطن لله تَعَالَى.

٣ ـ وَحضور الْقلب عند أَدائها فِي كل لَحْظة لأَنَّهُ ما لَك منْها إِلَّا ما عقلت، كما جاء في الْخبر.

٤ ـ ورؤية التَّقصير فيها بعد الْفراغ منها).

فأمَّا العلم بتفاصيل أحكامها فموضعه الفقه، وأمَّا الإخلاص والخشوع فسيأتي لاحقاً.

وأمَّا رؤية التقصير فيها: ليبقى العبد متذكراً فضل الله ومنّته عليه، وأنَّ الله هو الذي هداه لهذا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ وأنَّه لا يزال يتقلب في نعم الله تعالى، بنعمة الهداية، والعبودية، والقبول، والتيسير، والرزق، وغيرها، وأنَّه كان ولا يزال قبل الصلاة وحينها وبعدها عبداً لله، مقصراً في حقه، خائفاً من عقابه، راجياً لثوابه، ولا يظنّ بنفسه مهما أدى من العبادة أنَّه قد وفّى حقوق المنعم عليه، قال تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات]، فيعتقد العبد في قلبه أنَّه لم يهتدِ بعقله، ولا بقوته، ولا بفطنته؛ بل بفضل الله عليه وبرحمته، فيبقى متذللاً لله، خاشعاً له، منطرحاً بين يديه، يسأله الهداية والثبات في كل أحيانه، وفي الحديث القدسي عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى، وفيه: «**يا عبادي،**

كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»[١].

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنَّ الصلاة التي تقرُّ بها العين، ويستريح بها القلب، هي التي تجمع ستة مشاهد:

المشهد الأول: الإخلاص، وهو أن يكون الحامل عليها والداعي إليها رغبة العبد في الله، ومحبته له، وطلب مرضاته، والقرب منه، والتودد إليه، وامتثال أمره، بحيث لا يكون الباعث له عليها حظاً من حظوظ الدنيا البتة؛ بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى، محبة له وخوفاً من عذابه، ورجاء مغفرته وثوابه.

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح، وهو أن يفُرِّغ قلبه فيها، ويَستفرغ جهده في إقباله فيها على الله، وجمع قلبه عليها، وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها، ظاهراً وباطناً، فإنَّ الصلاة لها ظاهر وباطن، فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة، وباطنها الخشوع والمراقبة وتفريغ القلب والإقبال بكليته على الله فيها، بحيث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره، فهذا بمنزلة الروح لها، والأفعال بمنزلة البدن، فإذا خلت من الروح كانت كبدن لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يواجه سيّده بمثل ذلك؟ ولهذا تلَفُّ كمَا يلَفُّ الثوب الخلِق[٢]، ويُضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني.

والصلاة التي كمُل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نور وبرهان، كنورِ الشمس، حتى تُعرض على الله، فيرضاها ويقبلها، وتقول: حفظك الله كما حفظتني.

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والاقتداء، وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي ﷺ، ويُصلي كما كان يُصلي، ويُعرِض عما أحدث الناس في الصلاة من الزيادة والنقصان، والأوضاع التي لم ينقل عن

(١) صحيح مسلم (٦٧٣٧).
(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي (٥٨٦)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

رسول الله ﷺ شيء منها، ولا عن أحد من أصحابه، ولا يقف عند أقوال المرخّصين الذين يقفون مع أقل ما يعتقدون وجوبه، ويكون غيرهم قد نازعهم في ذلك وأوجب ما أسقطوه، ولعل الأحاديث الثابتة والسُّنَّة النبوية من جانبه ولا يلتفتون إلى ذلك، ويقولون: نحن مقلدون لمذهب فلان، وهذا لا يخلص عند الله، ولا يكون عذراً لمن تَخلَّف عما عِلِمه من السُّنَّة عنده، فإنَّ الله سبحانه إنَّما أمر بطاعة رسوله واتباعه وحده، ولم يأمر باتباع غيره، وإنَّما يُطاع غيره إذا أمر بما أمر به الرسول ﷺ، وكل أحد سوى الرسول ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، وقد أقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة: أنَّا لا نؤمن حتى نحكِّم الرسول فيما شجر بيننا، وننقاد لحكمه ونُسَلّم تسليماً، فلا ينفعنا تحكيم غيره والانقياد له، ولا يُنجينا من عذاب الله، ولا يُقبل منا هذا الجواب إذا سمعنا نداءه سبحانه يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص]، فإنه لا بد أن يسألنا عن ذلك، ويطالبنا بالجواب، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**أُوحي إلي أنكم بي تُفتنون وعني تُسألون**»(١)؛ يعني: المسألة في القبر، فمن انتهت إليه سُنَّة رسول الله ﷺ وتَركها لقول أحد من الناس، فسيرد يوم القيامة ويَعلم.

المشهد الرابع: مشهد الإحسان، وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سماواته، مستوياً على عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويُدبّر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيوماً حيّاً، سميعاً بصيراً، عزيزاً حكيماً، آمراً ناهياً، يُحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم، ولا بواطنهم؛ بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٥٠٨٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنَّه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له، ويقطع الوساوس وحديث النفس، ويجمع القلب والهم على الله، فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة، حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

المشهد الخامس: مشهد المنّة، وهو أن يشهد أنَّ المنَّة لله سبحانه، كونه أقامه في هذا المقام وأهّله له، ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته، فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك، كما كان الصحابة يَحدُون بين يدي النبي ﷺ فيقولون:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات]؛ فالله سبحانه هو الذي جعل المسلم مسلماً، والمصلي مصلياً، كما قال الخليل ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم].

فالمنَّة لله وحده، في أن جعل عبده قائماً بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات]، وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكلما كان العبد أعظم توحيداً، كان حظه من هذا المشهد أتم.

وفيه من الفوائد: أنَّه يحول بين القلب وبين العُجب بالعمل ورؤيته، فإنَّه إذا شهِد أنَّ الله سبحانه هو المانّ به، الموفق له، الهادي إليه، شَغلَه شهودُ ذلك عن رؤيته، والإعجاب به وأن يَصول به على الناس، فيرفع من قلبه فلا يُعجب به، ومن لسانه فلا يمنَّ به ولا يكترث به، وهذا شأن العمل المرفوع.

ومن فوائده: أنَّه يضيف الحمد إلى ولِيِّه ومُستحقه، فلا يشهد لنفسه حمداً؛ بل يشهده كله لله، كما يشهد النعمة كلها منه، والفضل كله له، والخير كله في يديه، وهذا من كمال التوحيد، فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلمِ ذلك وشهودِه، فإذا علِمه ورسَخ فيه صار له مشهدٌ، وإذا صار لقلبه مشهدٌ أثمر له من المحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا البتة، وما للمرء خير في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدوداً، وطريق الوصول إليه عنه مسدوداً؛ بل هو كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر].

المشهد السادس: مشهد التقصير، وأنَّ العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه فهو مقصرٌ، وحقُّ الله سبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يقابلَ به من الطاعة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأنَّ عظمته وجلاله سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بها، وإذا كان خدم الملوك وعبيدهم يُعامِلونهم في خدمتهم بالإجلال لهم والتعظيم والاحترام والتوقير والحياء والمهابة والخشية والنصح، بحيث يُفرغون قلوبهم وجوارحهم لهم، فمالك الملوك وربّ السماوات والأرض أولى أن يُعامَل بذلك؛ بل بأضعاف ذلك.

وإذا شهِد العبد من نفسه أنه لم يُوف ربه في عبوديته حقه ولا قريباً من حقه، علِم تقصيره، ولم يَسَعْه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقه، وأنه إلى أن يغفر له العبودية ويعفو عنه فيها، أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها ثواباً، وهو لو وفّاها حقها كما ينبغي لكانت مستحقَّة عليه بمقتضى العبودية، فإنَّ عَمَلَ العبدِ وخدمته لسيده مُستحَقّ عليه بحكم كونه عبده ومملوكه، فلو طلب منه الأجرة على عمله وخدمته لعَدَّه الناس أحمق وأخرق، هذا وليس هو عبده ولا مملوكه على الحقيقة، وهو عبد الله ومملوكه على الحقيقة من كل وجه لله سبحانه، فعمله وخدمته مستحق عليه بحكم كونه عبده، فإذا أثابه عليه كان ذلك مجرد فضلٍ ومنةٍ وإحسان إليه، لا يستحقه العبد عليه، ومن ههنا يُفهم معنى قول النبي ﷺ:

«**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[(١)]، وملاك هذا الشأن أربعة أمور: نية صحيحة، وقوة عالية، يقارنهما رغبة، ورهبة.

فهذه الأربعة هي قواعد هذا الشأن، ومهما دخل على العبد من النقص في إيمانه وأحواله وظاهره وباطنه فهو من نقصان هذه الأربعة أو نقصان بعضها.

فليتأمل اللبيب هذه الأربعة الأشياء، وليجعلها سَيره وسلوكه، ويبني عليها علومه وأعماله وأقواله وأحواله، فما نتج من نتج إلا منها، ولا تخلف من تخلف إلا من فقدِها.

والله أعلم، والله المستعان وعليه التكلان، وإليه الرغبة، وهو المسؤول بأن يوفقنا وسائر إخواننا من أهل السُّنَّة لتحقيقها علماً وعملاً، إنَّه ولي ذلك والمان به، وهو حسبنا ونعم الوكيل)[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، صحيح مسلم (٧٢٨٩، ٧٢٩١، ٧٢٩٢)، من حديث أبي هريرة.

(٢) رسالة ابن القيم إلى احد إخوانه (٣٩/ ٥٥).

الصلاة مكفِّرة للذنوب

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود]، جاء في سبب نزول هذه الآيات، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا؟، قَالَ: «**لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ**»[(١)].

قال السعدي رحمه الله: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)؛ أي: فهذه الصلوات الخمس، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي: مع أنَّها حسنات تقرب إلى الله، وتوجب الثواب، فإنَّها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك: الصغائر، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، مثل قوله: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[(٢)]؛ بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾؛ فإقامةُ الصلواتِ المفروضاتِ على وجهِها الصحيح، مع مراعاة فروضها وسُننها وأذكارها وخشوعها والطمأنينة فيها يوجبُ مباعدة الذنوبِ، ويوجبَ إنقاءَها وتطهيرَها، فإنَّ مثل الصلواتِ الخمسِ كمثل نهرٍ جارٍ، يغتسلُ فيه كلَّ يومَ خمسَ مراتٍ، وقد تكلمنا عن هذا الحديث في غير هذا الموضع)[(٣)].

(١) صحيح البخاري (٥٢٦، ٤٦٨٧)، صحيح مسلم (٧١٧٧).
(٢) صحيح مسلم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) تفسير السعدي، سورة هود [آية: ١١٤].

وقال القاسمي: (أشار القاشاني عليه الرحمة إلى سر الصلوات الخمس في أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه، فقال: لـمَّا كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه في الهيئات الجسمانية، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية، وتحجبه عن النور والحضور، بالإعراض عن جانب القدس، والتوجه إلى معدن الرجس، وتبدله الوحشة بالأنس، والكدورة بالصفاء، فرضت خمس صلوات، يتفرغ فيها العبد للحضور، ويسد أبواب الحواس، لئلا يرد على القلب شاغل يشغله، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية، لوصول مدد النور، ويجمع همه عن التفرق، ويستأنس بربه عن التوحش، مع اتحاد الوجهة، وحصول الجمعية، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب، على جناب الربّ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور، وداراً للعين الغرور، التي تدخل بها الظلمة ليذهب النور الوارد أثار ظلماتها، ويكسح غبار كدوراتها، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١]).

وجاءت أحاديث عديدة في بيان أنَّ الصلاة مكفِّرة للسيئات والخطايا، وسنذكر بعضاً من هذه الأحاديث:

١ ـ في الحديث عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «كنا جلوساً عند عمر رضي الله عنه، فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا، كما قاله، قال: إنك عليه ـ أو: عليها ـ لجريء، قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفِّرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي...»[٢].

٢ ـ وجاء أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»**[٣].

٣ ـ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا**

(١) تفسير القاسمي، المسمى: محاسن التأويل (٦/١٣٨).
(٢) صحيح البخاري (٥٠٢).
(٣) صحيح مسلم (٥٧٤).

يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(١).

وجاء أيضاً في أنَّ المشي إلى المسجد لأداء الصلوات يكفِّر الله به الخطايا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**»(٢).

وبيَّنت السُّنَّة أنَّ إسباغ الوضوء مع إخلاص الصلاة ـ والجماعة خاصة ـ سبب لمغفرة الذنوب كذلك، عَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ، أَوْ مَعَ الْجَمَاعَةِ، أَوْ فِي الْمَسْجِدِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ**»(٣)، وعَنْ سَعِيدِ بنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: حَضَرَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ الْمَوْتُ، فَقَالَ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً مَا أُحَدِّثُكُمُوهُ إِلَّا احْتِسَاباً، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، لَمْ يَرْفَعْ قَدَمَهُ الْيُمْنَى إِلَّا كَتَبَ اللهُ عز وجل لَهُ حَسَنَةً، وَلَمْ يَضَعْ قَدَمَهُ الْيُسْرَى إِلَّا حَطَّ اللهُ عز وجل عَنْهُ سَيِّئَةً، فَلْيُقَرِّبْ أَحَدُكُمْ، أَوْ لِيُبَعِّدْ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِي جَمَاعَةٍ، غُفِرَ لَهُ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ وَقَدْ صَلَّوْا بَعْضاً وَبَقِيَ بَعْضٌ صَلَّى مَا أَدْرَكَ وَأَتَمَّ مَا بَقِيَ كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ وَقَدْ صَلَّوْا فَأَتَمَّ الصَّلَاةَ كَانَ كَذَلِكَ**»(٤).

والصلاة سبب لدخول الجنة، فعَنْ رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الأَسْلَمِيّ رضي الله عنه، قالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «**سَلْ**»، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ، قال: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟**»، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ،

---

(١) صحيح مسلم (٦١٠).
(٢) صحيح مسلم (١٥٥٣).
(٣) صحيح مسلم (٥٧١).
(٤) سنن أبي داود (٥٦٣).

قال: «**فَأعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[١].

ومما جاء في أنَّ الصلاة سبب لمغفرة الذنوب، ما ورد في كتاب الله تعالى، عن داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص]، قال السيد طنطاوي: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ والظنُّ معناه: ترجيح أحد الأمرين على الآخر، و**فتناه**، بمعنى: امتحناه واختبرناه وابتليناه، مأخوذ من الفتن بمعنى: الابتلاء والاختبار؛ أي: وظن داود عليه السلام أنَّ دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة، إنَّما هو لأجل الاعتداء عليه، وأنَّ ذلك لون من ابتلاء الله تعالى له، وامتحانه لقوة إيمانه، ولكن لما لم يتحقق هذا الظنّ، وإنَّما الذي تحقق هو القضاء بينهما بالعدل، استغفر ربه من ذلك الظن، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً لله تعالى، وعبّر عنه بالركوع؛ لأنَّه في كل منهما انحناء وخضوع لله عز وجل، ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: ورجع داود إلى الله تعالى بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة)[٢].

---

(١) صحيح مسلم (١١٢١).
(٢) التفسير الوسيط (١/ ٣٦١١).

الصلاة سبب لرؤية الله تعالى يوم القيامة

عندما يقف العبد في صلاته يراقب ربه ويناجيه، ويستقبل القبلة، ويعلم أنَّ ربه تلقاء وجهه، وهو يناجي ربه، ويتغنى بالقرآن، كما في الصحيحين عنْ أَبِي هريَرَة رضي الله عنه، أَنَّه سمع رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا أَذِنَ الله لشيْءٍ ما أَذنَ لنبيٍّ حَسنِ الصَّوْت يتغَنَّى بالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**»[(١)]. وأنَّ ربه بينه وبين القبلة، وهو أقرب إلى ربه، كما جاء في الحديث عنْ أَنسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نخامةً في القبْلة، فشقَّ ذلك عليْه، حتَّى رُئِيَ فِي وجهه، فقام فَحَكَّهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: «**إِنَّ أَحدكُمْ إِذَا قامَ فِي صلاته، فإِنَّه يناجي ربَّهُ ـ أَوْ: إِنَّ ربّه بينه وبين القبلة ـ فلا يبزُقَنَّ أَحدكم قبل قبلته ولكنْ عنْ يساره، أَوْ تحت قدميه**»، ثمَّ أَخذ طرف ردائه فبصق فيه، ثمَّ ردَّ بعضه على بعضٍ فقالَ: «**أَوْ يفعل هكذا**»[(٢)]، ويستشعر مشاعر الصلاة: من الإخلاص، وحضور القلب، واستشعار المتابعة، والاقتداء بالنبي ﷺ، والحرص على الإحسان بكمال المراقبة للملك الديّان، واستشعار الرجاء فيما يتكرر في الصلاة من الدعاء له، والتضرع إليه، والرغبة لسعة جوده وعفوه وإحسانه، واستشعار منَّة الله على العبد، واستشعار جمال الله تعالى، واستشعار التقصير في حق الله، والافتقار إليه، والمهابة منه، والخوف من سلطانه تعالى.

فالمصلي يعبد الله بالإحسان، فيقف بين يدي ربه كأنَّه يراه، ويتراءى الله بين عيني قلبه، وقد جاء في الصحيحين عن جريرٍ رضي الله عنه، قال: كنَّا عند النَّبِيِّ ﷺ فنظرَ إِلَى القمرِ ليلةً ـ يَعْنِي: الْبَدْرَ ـ فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا**

(١) صحيح البخاري (٧٥٤٤)، صحيح مسلم (٧٩٢).
(٢) صحيح البخاري (٢٤١، ٤٠٥)، صحيح مسلم (٥٥١).

تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق]»[(١)].

قال ابن رجب: (وقوله: «**فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**»: أمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين، وهما صلاة الفجر وصلاة العصر، وفيه إشارة إلى عظم قدر هاتين الصلاتين، وأنّهما أشرف الصلوات الخمس، ولهذا قيل في كل منهما: إنَّها الصلاة الوسطى، والقول بأنَّ الوسطى غيرهما لا تعويل عليه، وقد قيل في مناسبة الأمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين عقيب ذكر الرؤية: أنَّ أعلى ما في الجنَّة رؤية الله ﷻ، وأشرف ما في الدنيا من الأعمال هاتان الصلاتان، فالمحافظة عليهما يرجى بها دخول الجنَّة، ورؤية الله ﷻ فيها، كما في الحديث الآخر: «**من صلى البردين دخل الجنة**»[(٢)])[(٣)].

ومن هذا تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم]، كما في الصحيحين عن أَبِي سعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْواً؟**» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا**»، ثُمَّ قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟، قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لله صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟، قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا،**

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، صحيح مسلم (٦٣٣).
(٢) صحيح البخاري (٥٧٤)، صحيح مسلم (٦٣٥).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب.

فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟، فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لله صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟، فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟، فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمْ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟، فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً وَاحِداً...»[(١)].

وفي هذا الحديث: أنَّ الله تعالى قد مَيّزَ بين أهل الإيمان وأهل النفاق بالسجود، فكانت صلاتهم الخالصة لله في الدنيا هي سبب النجاة والفوز، ومعرفة ربهم بعد رؤيته، وسجودهم له في الآخرة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: (فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنَّهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإنَّ الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، ويوجب التدارك مدة الإمكان)[(٢)].

(١) صحيح البخاري (٧٤٣٩)، صحيح مسلم (١٨٣).
(٢) تفسير السعدي، سورة القلم [آية: ٤٢].

الصلاة على وقتها

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولما كانت الجدوب متتابعة على القلوب، وقحط النفوس متوالياً عليها، جدد له الدعوة إلى هذه المأدبة، وقتاً بعد وقت رحمةً منه به، فلا يزال مستسقياً مَنْ بيده غيث القلوب وسقيها، مستمطراً سحائب رحمته، لئلا ييبس ما أنبتته له تلك من كلأ الإيمان وعشبه وثماره، ولئلا تنقطع مادة النبات، والقلب في استسقاء واستمطار، هكذا دائماً يشكو إلى ربه جدبه وقحطه، وضرورته إلى سقيا رحمته، وغيث بره، فهذا دأب العبد أيام حياته)[(١)]، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، وعن عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ أي الأَعْمَالِ أَحبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»، قُلْتُ: ثُمَّ أي؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أي؟ قَالَ: «**ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله**»، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي[(٢)].

الصلاة غذاء للقلب، كما أنَّ الطعام غذاء للجسد، فالجسد بحاجة إلى الغذاء مما تُخرج الأرض من ثمراتها، ومما يقويه على حياته، والقلب بحاجة إلى الغذاء، ليحيا به كما حيا الجسد بالطعام، والعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله من أعظم ما يحيا به القلب، وخير زاد للقلب هو القرب ممن خلقه، وأودع فيه الخير والشر، والحق والباطل، فإنَّ القلب إذا تقرب من خالقه، وناجاه بكلامه، وسبّحه وحمده وأثنى عليه وكبّره ودعاه، فإنَّه

---

(١) أسرار الصلاة لابن القيم (١٠٦).
(٢) صحيح البخاري (٥٢٧)، صحيح مسلم (٢٦٤).

ومن غير شك سيحيا ويزهر ويزكو مستأنساً بقربه من ربه، فيقوى إيمانه بذلك، فينتج عن ذلك العمل الصالح، والخلق الحسن، وطيبة النفس، وبشاشة الروح.

ولمّا كان كل منهما يهضم غذاءه، فيحتاج إلى غذاء جديد، وقد جاء هذا المعنى في حديث رسول الله ﷺ، عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَيَتْلُو، فَاتْلُوا الْقُرْآنَ يُجَدِّدُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(١)]، وهذا الغذاء لا يتحصّل إلا بتفضل الكريم الرحيم على عباده الضعفاء، وهو أعلم بما ينفعهم ويقربهم منه، فجعل الصلوات خمساً، مقسمة على أجزاء اليوم والليلة، وهذا لعمري تقسيم بديع من ربِّ عليم، أحسن كل شيء خلقه، فقال في كتابه العظيم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**وَقْتُ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَكَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ كَطُولِهِ، مَا لَمْ يَحْضُرِ الْعَصْرُ، وَوَقْتُ الْعَصْرِ مَا لَمْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ، وَوَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ، وَوَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوْسَطِ، وَوَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ، مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَأَمْسِكْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**»[(٢)].

فقدَّر الله تعالى المواقيت مع تغير أحوال الليل والنهار، فينبغي على العبد أنْ يحرص على هذه الأوقات التي أوجبها الله عزّ وجلّ عليه، لينال ما

---

(١) المستدرك للحاكم (٥)، المعجم الكبير للطبراني (٨٤).
(٢) صحيح البخاري (٥٥٢)، صحيح مسلم (١٤٤٨).

أوعده الله به من عظيم الأجر والثواب، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس]، فكلّ بشارة وكل نجاح، وكل فلاح، وكل توفيق، وكل رزق، يأتي بعد الصلاة، فمن أقام صلاته استقامت حياته، وصلحت شؤونه، علاوة على ذلك ما أعدّه الله للمصلين من حسن الجزاء يوم القيامة، قال ابن القيم في نونيته:

والسابقون إلى الصلاة هم الألى ... فازوا بذاك السبق بالإحسان
سبق بسبق والمؤخر ههنا ... متأخر في ذلك الميدان
والأقربون إلى الإمام فهم أولو ... الزلفى هناك فها هنا قربان
قرب بقرب والمباعد مثله ... بعد ببعد حكمة الديان
ولهم منابر لؤلؤ وزبرجد ... ومنابر الياقوت والعقيان
هذا وأدناهم وما فيهم دنيّ ... من فوق ذاك المسك كالكثبان

فيبدأ العبد يومه بالعبادة، ليقبل على ربه، متوكلاً عليه، مستعيناً به، ثم ينصرف إلى شؤونه وأعماله، فينشغل بالبيع والشراء ومخالطة الناس، والكد والتعب، وبعد أن ترتفع الشمس وتعلو، ويبلغ النهار منتصفه، يريد العبد أن يأخذ قسطاً من الراحة، بعد ساعات من الجهد، بمختلف أشكاله ـ وهذه جِبلة عند النَّاس ـ فشاء الله تعالى له أن يجدد إيمانه، بلقاء ربه مرة أخرى، ليخفف عنه ما شق عليه، وليغفر له ما اقترف من الخطايا في يومه، وبعد هذه الاستراحة يستعد العبد ليبدأ شطر يومه الآخر، وقبل أن يبدأ به أَمَره ربه بصلاةٍ من فاتته فكأنما وتر أهله وماله، وهي الصلاة الوسطى، وذلك الوقت يغفل فيه الناس عن ربهم، لذلك خصّها ربنا تعالى بالحث على المحافظة عليها، وحذرنا رسول الله ﷺ من تفويتها، وبعد هذا تغرب الشمس ليبدأ الليل، فأمر الله بصلاة نوتر بها الصلاة من نهارنا، ونستفتح بها ليلنا، كما استفتحنا بالصلاة نهارنا، وبعد هذا كله يريد الانسان بفطرته أَن يخلد إلى نومه، ليريح جسده، مستعداً ليوم آخر بإذن ربه، فكان التشريع الإلٰهي بأن ينهي هذا اليوم بصلاة يصليها هي أثقل صلاة على المنافقين، ليذهب إلى فراشه مغفوراً له بإذن ربه، فكما أنَّه يريد راحة جسده، أراد الله له راحة

نفسه وقلبه، وخفف من ذنوبه ليذهب إلى نومه آمناً مطمئناً، لذلك نهى النبي ﷺ عن الحديث بعدها[١].

فالحمد لله أولاً وآخراً على ما منَّ به علينا، من الصلوات والدعوات والتسبيح.

❀ ❀ ❀

(١) في حديث أخرجه البخاري (٥٢٢، ٥٤٣، ٥٧٤)، ومسلم (١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦)، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

التهيؤ للصلاة

لـمَّا كانت الصلاة هي أعظم فروض الدين، وعامود الإسلام كما ثبت عن النّبي ﷺ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «... قَالَ: **رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ...**»[(١)]، وأنَّها مكفِّرة للذنوب والخطايا، كما صحّ عنْ أَبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[(٢)]، ولما فيها من صلة بين العبد وربه، فقد شرع الله لعباده طهارتين قبل الشروع في تلك العبادة العظيمة، مع الاستعداد النفسي والبدني لها، وذلك مناسب لهم، ليحصلوا على الطهارة التامة بهذه الشعيرة العظيمة، وكما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رَسولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو الله بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[(٣)].

أما الاستعداد النفسي: فقد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون]، قال الإمام الطبري رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله: ﴿سَاهُونَ ۝٥﴾: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها، تضييعها أحياناً، وتضييع وقتها أخرى....)[(٤)]، وقال ربنا تبارك وتعالى حكاية عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ

---

(١) مسند أحمد (٢٢٠١٦)، سنن ابن ماجه (٣٩٧٣)، جامع الترمذي (٢٦١٦).
(٢) صحيح مسلم (١٦، ٢٣٣). (٣) صحيح مسلم (١٥٥٤).
(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) (٢٤/ ٦٦٣).

خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التوبة]، وهذا الاستعداد يتطلب الصدق مع الله، مع كمال الإخلاص لله وحده، لذلك نجد أنَّ الله تعالى عندما ذمَّ المنافقين كما في الآيات السابقة وصفهم بالرياء، ففي **الأولى** قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾، وفي **الثانية** قال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾، فجعل الله تعالى الرياء مبطلاً للعمل، وذلك لكونه منافياً للإخلاص، والرياء: هو أن يُظهر الإنسان الأعمال الصالحة لتحمده النَّاس، ويعتقدوا فيه الصلاح، وهذا من الشرك الخفي.

لذلك توجب على العابد أنْ يخلص النية لله عند قيامه الى الصلاة، وهذه الطهارة الأولى: وهي طهارة القلب من الشرك والرياء، وإخلاص العمل لله وحده، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف]، قال القاسمي في تفسيره: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ أي: يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ﴾؛ أي: في نفسه، لائقا بذلك المرجوّ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾؛ أي: من خلقه إشراكا جليّا، كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكا خفيّا، كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً: من المدح وتحصيل المال والجاه)[(١)].

ويكون الصدق في ذلك ملازماً للإخلاص، فليس شيءٌ أحسن من صدق العبد مع ربه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾ [محمد]، فصِدقُ القلب، وعزيمته، تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، فبالصدق والإخلاص يجد العبد القوة والسعادة في عمله.

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٧/ ٨٢).

الاستعداد الثاني: هو الاستعداد بطهارة البدن، وطهارة الثياب التي تستر بها العورات، وطهارة المكان الذي يصلى فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة]؛ فربنا تعالى يأمرنا بالطهارة بقسميها: الصغرى، وهي: الوضوء، والكبرى، وهي: الغسل، وما ينوب عنهما عند العجز، وهو التيمم، ما يريد بذلك إيقاعنا في الضيق والعنت، ولكنَّه تعالى يريد بذلك تطهيرنا من الأحداث والذنوب؛ لأنَّ الوضوء كفارة لذنب المتوضئ، كما جاء بيانه في الحديث عنْ أَبي هريرة، أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ ـ أَوِ: الْمُؤْمِنُ ـ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ ـ أَوْ: مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ـ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ ـ أَوْ: مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ـ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ ـ أَوْ: مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ـ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيّاً مِنَ الذُّنُوبِ**»(١)، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: بهدايتكم إلى الإسلام، وتعليمكم شرائعه، فيعدكم بذلك لشكره، وهو طاعته بالعمل بما جاء به الإسلام من الأعمال الباطنة والظاهرة، وهو معنى قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

فإذا فعل المسلم هذا فله بشارة من رسول الله ﷺ، كما في الحديث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا**»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: (فبالوضوء يتطهر من الأوساخ، ويقدم على ربه

(١) صحيح مسلم (٦٠٠).
(٢) صحيح مسلم (٥٦٨).

متطهراً، والوضوء له ظاهر وباطن، فالظاهرة: طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسرّه: طهارة القلب من أوساخ الذنوب والمعاصي وأدرانه بالتوبة، ولهذا يقرن تعالى بين التوبة والطهارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]، وشرع النبي ﷺ للمتطهر أنْ يقول بعد فراغه من الوضوء: أن يتشهد ثم يقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**»[١]. فكمل له مراتب العبودية والطهارة باطناً وظاهراً، فإنَّه بالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب، وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة، فشرع له أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله عز وجل، والوقوف بين يديه، فلمَّا طَهُر ظاهراً وباطناً أذِنَ له بالدخول عليه والقيام بين يديه)[٢].

❁ ❁ ❁

(١) جامع الترمذي (٥٥).
(٢) أسرار الصلاة لابن القيم (١١٢).

السكينة والوقار في الذهاب إلى الصلاة

لـمّا اهتم الشارع الحكيم في أمر الصلاة فجعل بصلاحها صلاح سائر الأعمال، لم يهمل تمام الهيئة مع تمام العمل؛ بل اهتم بالهيئة كما اهتم في نفس الصلاة، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذه الآية وما ورد في معناها من السُّنَّة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيّما يوم الجمعة، ويوم العيد، والطِّيبُ لأَنَّه من الزينة، والسِّواك لأنَّه من تمام ذلك، ومِن أفضل الثِّياب البَيَاض)(١).

فحثنا ربنا على أنْ نتأهّب للصلاة، ونذهب إليها بأجمل صورة، وأحسن هيئة، وهذا الذي يليق بهذه الشعيرة العظيمة، وبما نلاقي به ربنا، لكن كل ذلك مشروط بعدم الإسراف؛ بل زيادة على هذا إنَّ حسن المظهر مع صدق الباطن يكون سبباً في غفران الذنب، وذلك خاصاً بالجمعة، كما جاء في الحديث الشريف، عنْ سلْمان الْفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى**»(٢).

وفي عكس هذا ما قد جاء عنْ جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّوم**، وقَالَ مَرَّةً: **مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»(٣)،

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٤).
(٢) صحيح البخاري (٨٨٣).
(٣) صحيح مسلم (١٢٨٢).

وهذا عام في كل ما يتأذى منه بنو آدم من الروائح الكريهة، سواءٌ أكانت من البصل أم الثوم أم غيرها.

وقد صحّ عن السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ عُمَّالَ أَنْفُسِهِمْ وَكَانَ يَكُونُ لَهُمْ أَرْوَاحٌ فَقِيلَ لَهُمْ: **لَوْ اغْتَسَلْتُمْ**»[١].

وعنْ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ـ أَوْ: إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ ـ فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ**». ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: «**أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا**»[٢]، وقد ذكر هذا في صفة الصلاة.

ومن حسن الهيئة أنْ يأتي الإنسان بتأنٍّ لا بسعي شديد؛ بل يمشي على أحسن مشية، من غير تبختر، حتى ولو علم أنَّه سيفوت عليه جزء من الصلاة، كما أخبر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقُولُ: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»[٣].

قال المناوي: («**إذا أقيمت الصلاة**»؛ أي: إذا نادى المؤذن بالإقامة، فأُقيم المسبب مقام السبب، ذكره الطيبي. ونبّه بالإقامة على ما سواها، لأنّه إذا نهى عن إتيانها سعياً حال الإقامة، مع خوف فوت بعضها، فقبل الإقامة أولى، «**فلا تأتوها وأنتم تسعون**»؛ أي: تهرولون، وإن خفتم فوت التكبير أو التبكير فإنَّكم في حكم المصلين المخاطبين بالخشوع والخضوع، فالقصد من الصلاة حاصل لكم، وإن لم تدركوا منها شيئاً، والنهي للكراهة، وأما قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فليس المراد به: الإسراع؛ بل الذهاب، أو هو بمعنى العمل والقصد، كما تقول: سعيت في أمري. قال

(١) صحيح البخاري (٢٠٧١)، صحيح مسلم (٩٠٣).
(٢) صحيح البخاري (٤٠٥)، صحيح مسلم (٥٥١).
(٣) صحيح البخاري (٩٠٨)، صحيح مسلم (٦٠٢).

الطيبي: وقوله: «**وأنتم تسعون**» حال من ضمير الفاعل، وهو أبلغ في النهي من (لا تسعوا)، وذلك لأنّه منافٍ لما هو أولى به من الوقار والأدب، ثم عقبه بما ينبه على حسن الأدب، بقوله: «**وائتوها**» في رواية: «**ولكن ائتوها وأنتم تمشون**» بهينة، لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ثم ذيّل المفهومين بقوله: «**وعليكم السكينة**»؛ أي: الزموا السكينة في جميع أموركم، سيما في الوفود على ربِّ العزة، فالزموا الوقار في الهيئة، بغض البصر، وخفض الصوت، وعدم الالتفات والعبث)[١].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٢٩٤).

الخشوع في الصلاة

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد].

قال ابن كثير: (نهى الله الْمؤمنين أَنْ يتشبَّهوا بالَّذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنَّصارى، لَمَّا تطاول عليهم الأَمدُ بدَّلوا كتاب الله الَّذي بأَيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهمْ، وأَقبلوا على الآراء المختلفة، والأَقوال المؤتفكة، وقلَّدوا الرِّجال في دين الله، واتَّخذوا أَحبارهم ورهبانهم أَرباباً من دون الله، فعند ذلك قستْ قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعدٍ ولا وعيدٍ)[١].

بدأت في مسألة الخشوع بالتحذير والترهيب قبل الترغيب، لما وقع في خاطري من صدق المقالة التي قالها الحافظ ابن كثير في تفسيره، وبمطابقتها لواقعنا الذي نعيشه، فاليوم نجد أنفسنا انشغلنا عما يراد لنا من الخير إلى سفاسف الأمور، إلا ما رحم ربي، وانشغلنا بالنقد وبالرد، والقيل والقال، وتعظيم الرجال على حساب إصلاح أنفسنا، وتدبر كلام ربنا، وسلوك سبل النجاة والسلام، ولا صلاح لنا ولا رجوع الى ربنا إلا بإصلاح قلوبنا، والأصل في الخشوع أنْ يكون من القلب، فالقلب أمير البدن، فإذا خشعَ القلب خشع السمع والبصر والوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ عنها، حتى الكلام، فالقلب كالملك إن استقام استقامت جنوده، قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ**

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ١٨١).

كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١].

ولا يُصلح القلب غير تدبر كلام ربنا، والخشوع والتضرع في الصلاة، وهذا ما علمه سلف هذه الأمة.

فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: (ليس العلم منْ كَثْرة الْحديث، ولكنَّ العلم من الخشْية).

وجاء في تعظيم قدر الصلاة للمروزي: حدّثنا إِسحاق، أَخبرنا محمَّدُ بنُ بكر، أَخبرنا ابن جريج، قال: قلت لعطاء: أَقبض بكفِّي اليمنى على عضدي اليسرى، وكفِّي اليسرى على عضدي اليمنى؟ فكرهه، وقالَ: (إِنَّما الصّلاة خشوعٌ، قَالَ الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، فقد عرفتم الرّكوع والسّجود والتّكبير، ولا يعرف كثيرٌ من النّاس الخشوع).

وقال سفيان الثوريّ، يقول: (يكتب للرّجل من صلاته ما عقل منها).

والكلام عن الخشوع اليوم من الأهمية بمكان، لما روي عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه، أنّه كان يقول: (أوّل ما يرفع من الناس الخشوع، حتى لا ترى خاشعاً).

والخشوع تذلُّل القلوب لعلّام الغيوب، كما قال الجنيد البغدادي، والخشوع في الصلاة أعمّ من ذلك، فهو مع كونه في القلب فهو أشمل، إذ يحتاج من المصلي أنْ تخشع جوارحه، ويتدبر ما يقرأ، ويفهم ما يقول ويفعل مع الإقبال والمراقبة، حتى توصل العبد إلى مرتبة الإحسان.

وأما الخاشعين، فقد امتدحهم الله في كتابه، وحث على الخشوع، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون].

قال السعدي رحمه الله: (هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها، فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادةً ونقصاً، كثرةً

---

(١) صحيح البخاري (٥١)، صحيح مسلم (١٧٧٣).

وقلةً، فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾؛ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة: أنهم ﴿فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقلّ التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإنَّ الثواب على حسب ما يعقل القلب منها)[١].

وقال الرازي في تفسيره: (فالخاشع في صلاته لا بد وأَنْ يحصل له ممَّا يتعلَّق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومن التُّروك أَنْ لا يكون ملتفت الخاطر إِلى شيْءٍ سوى التّعظيم، وممَّا يتعلَّق بالْجوارح أَن يكون ساكناً مطْرِقاً ناظراً إِلى موضع سجوده، ومن التُّروك أَنْ لَا يلتفت يميناً ولا شمالاً، ولكنَّ الْخشوع الَّذي يرى على الإِنسان ليس إِلَّا ما يتعلَّق بالْجوَارِح فإِنَّ ما يتعلَّق بالقلب لا يرى، قال الْحسن وابن سيرين: كان المسلمون يرفعون أَبصارهم إِلى السَّماء في صلاتهم، وكان رسول الله ﷺ يفْعل ذلك، فلمَّا نزلت هذه الآية طأْطأَ، وكان لا يجاوز بصرُهُ مصلَّاه، فإِنْ قيل: فهل تقولون: إِنَّ ذلك واجبٌ في الصَّلاة؟ قلنا: إِنَّه عندنا واجبٌ ويدلُّ عليه أُمورٌ، **أَحدها:** قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [مُحَمَّدٍ]، والتَّدبُّر لا يتصوَّرُ بدون الوقوف على الْمعنى، وكذا قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [الْمُزَّمِّلِ]، معناه: قِفْ على عجائبه ومعانيه، **وثانيها:** قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طه]، وظاهر الْأَمْر للوجوب، والغفلة تضادُّ الذِّكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصَّلاة لذكره، **وثالثها:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الْأَعْرَافِ] وظاهر النّهي للتَّحريمِ، **ورابعها:**

(١) تفسير السعدي (٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّسَاءِ: ٤٣]، تعليلٌ لنهي السّكران وهو مطَّردٌ في الغافل المستغرق المهتمِّ بالدّنيا)[١].

وعندما ذكر الله تعالى في كتابه صفاتاً لعباده المستحقين للمغفرة من ربه، مع الثواب الوافر، والأجر العظيم، كانت من بين تلك الصفات صفة الخشوع لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٣٥﴾ [الأحزاب].

والخشوع من صفات الأنبياء في عباداتهم الجليلة التي ذكرها ربنا في كتابه، فكانوا عليهم الصلاة والسلام متواضعين متذللين لله، ولا يستكبرون عن عبادته ودعائه، والافتقار إلى عفوه ورحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء].

والخشوع يتأتى للقلب غالباً إذا بذل العبد أسبابه، مِن جلب الأسباب ودفع الموانع، كما أنَّ القلب يقسو ويغفل إذا ترك أسباب الخشوع.

والخشوع في الصلاة، هو روحها وَلُبُّهَا، ويُكثِّر ثوابها، أو يَقلُ أجر تلك الصلاة بقلة الخشوع فيها، فالمصلي يؤجر على صلاته على قدر ما عقل منها، ولذا أثنى الله تعالى على الذين هم في صلاتهم خاشعون بأنَّهم الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، إذاً عُدَّ الخشوع في الصَّلاة منْ صفات المؤمنين المفلحين، الّذين يرثون الفردوس، فالمسلم الحصيف يسعى لتحصيله، وبيّنَ أَنَّ منْ لم يتَّصف بهذا الخشوع تصعُبُ عليه الصَّلاةُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة]، قال الآلوسي: (وإنّما لم تثقل عليهم لأنّهم عارفون بما يحصل لهم فيها، متوقعون ما ادّخر من ثوابها، فتهون عليهم، ولذلك قيل: من عرف ما يطلب، هان عليه ما يبذل، ومن أيقن

(١) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) (٢٣/ ٢٥٩).

بالخلف جاد بالعطية)[١].

وجاءت السُّنَّة في الثناء والوعد بالجزاء الحسن لمن أتم الصلاة بشروطها وأركانها وسُننها، وجُمع إلى ذلك الخشوع الملازم لها، عن عثمان ﵁ أنه دعا بطَهورٍ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»[٢].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه، من حديث له طويل، عن عمرو بن عبسة وفيه «. . .فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. . .»[٣].

والخشوع مستحب بإجماع العلماء؛ بل قال جماعة من العلماء بوجوبه، منهم: الغزالي، والقرطبي في تفسيره، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والعراقي.

ويُستجلب الخشوع بأمرين:

الأول: جلب ما يوجب الخشوع ويؤديه، ويكون ذلك بالاستعداد للصلاة، والتفرغ لها، والطمأنينة في الأركان والقيام، وترتيل القراءة وتنويعها، وتدبر الآيات والأذكار ومعاني الحركات، وتنويع الأدعية والأذكار الثابتة عن رسول الله ﷺ، في الركوع والسجود والاستفتاح والاعتدال بعد الركوع، إذاً الخشوع يتحصل بالإقبال على الله، وحسن التوجه إليه، والتدبر والفهم، واستشعار المشاعر التي ذكرتها من قبل، من استشعار الإخلاص، واستحضار القلب مع الربِّ حتى كأنه يراه، واستشعار المتابعة والاقتداء بالنبي ﷺ، والحرص على الإحسان بكمال المراقبة للملك الديان، والرجاء، واستشعار منَّة الله عليك، واستحضار جمال وجلال الله، واستشعار التقصير في جنب الله تبارك وتعالى.

- ومما يعين المصلي على الخشوع أثناء القراءة: أن يقطّع المصلي

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الآلوسي) (١/ ٢٥٠).
(٢) صحيح مسلم (٥٦٥).
(٣) صحيح مسلم (١٩٦٧).

قراءته آيةً آية: وذلك أدعى للفهم والتدبر وهي سُنَّة النبي ﷺ، فقد كانت قراءته مفسرة حرفاً حرفاً، وأن يرتّل القراءة، ويحسّين الصوت بها، لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل].

- ومن ذلك: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: الشيطان عدو لنا، ومن عداوته قيامه بالوسوسة للمصلي، كي يذهب خشوعه، ويلبِّس عليه صلاته، ويذهب عليه تدبره، فالشيطان بمنزلة قاطع الطريق، كلما أراد العبد السير إلى الله تعالى، أراد قطع الطريق عليه، فينبغي للعبد أنْ يثبت ويصبر، ويلازم ما هو فيه من الذكر والصلاة، ولا يضجر، فإنَّه بملازمة ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

- ومن ذلك: أنْ يعرف المصلي مزايا الخشوع في الصلاة، كما في حديث عثمان رضي الله عنه في حسن الخشوع.

- ومن ذلك: الاجتهاد بالدعاء في مواضعه في الصلاة، وخصوصاً في السجود، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»(١).

- ومن ذلك: أن يستحضر العبد أنَّه واقف بين يدي الله تعالى، فيناجيه ويتضرع إليه، وقد روى الإمام مالك في موطئه بسند صحيح، عن البياضي رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المصلي يناجي ربه، فلينظر بما يناجيه به**»(٢)، لذا فإنَّه لا بد من مراقبة الله تعالى، ليستقيم أمر الصلاة، ولا تكون مجرد حركات مكتسبة من العادة؛ بل لا بد أن نضع الدنيا وراء ظهورنا، وماذا لو علم العبد أنَّ كلماته مسموعة، وأنَّها بالغة السلطان لا محالة، ماذا سيقول؟ وكيف سيتكلم؟ ألا تجده يزن الحروف والكلمات؟ فكيف بمن سيمثل أمام السميع البصير العليم، الذي لا تخفى عليه خافية؟!.

- ومن ذلك: إحضار القلب في الصلاة، وعدم انشغاله بهموم الدنيا

---

(١) صحيح مسلم (١١١١).

(٢) موطأ الإمام مالك (١٧٧).

وأعمالها، وأن يقبل بقلبه على الله تعالى، ولا يشتغل بغير صلاته، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يتوضأ، فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة**»(١).. ولهذا جاء النهي عن الالتفات في الصلاة، وهو نوعان: **أحدهما**: التفات القلب عن الله تعالى، بأن ينصرف إلى الدنيا وأشغالها، ولا يتفرغ لربه تعالى، **والنوع الثاني**: الالتفات بالنظر يميناً وشمالاً، والمشروع قصر النظر على موضع سجوده؛ لأنَّ ذلك من لوازم الخشوع، ويقطع عنه الاشتغال بالمناظر التي حوله.

الثاني: إزالة الشواغل ودفع الموانع التي تصرف عن الخشوع، فيحرص المصلي على صرف الأفكار التي تشغله عن صلاته، وأن يدفع عنه السرحان، ولا يصلي وهو حاقن أو حازق أو حاقب، ولا بحضرة طعام، ولا إلى نائم أو متحدث، أو إلى غيره مما يشغله.

والمسلم يخشع في صلاته وفيما يتعلق بها، من سماع الأذان والترديد والدعاء، والإقبال إليها بالوضوء والسير إليها والوقوف في الصف، ومن هدي النبي ﷺ تسوية الصفوف للصلاة، فإنَّما يصطف الناس في المقامات التي يكون فيها أمرٌ عظيم، والصلاة خير الأعمال، ولذا فإنَّ الملائكة تصف تعظيماً لله وخضوعاً له.

- ومن ذلك: أن لا يصلي في ثوب فيه نقوش أو كتابات أو ألوان أو تصاوير تشغل المصلي، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قام النَّبيُّ يصلي في خميصة ذات أعلام ـ وهو كساء مخطط ومربّع ـ فنظر إلى علمها، فلما قضى صلاته، قال: «**اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم بن حذيفة وأتوني بأنبجانيّة** ـ وهي كساء ليس فيه تخطيط ولا تطريز ولا أعلام ـ، **فإنَّها ألهتني آنفاً في صلاتي**»(٢).

- ومن ذلك: قطع الحركة والعبث، وملازمة السكون، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند**

(١) صحيح مسلم (٥٧٦).
(٢) صحيح مسلم (١٢٦٧).

الدعاء في الصلاة إلى السماء، أو لتخطفن أبصارهم»[(١)]. فلما كان رفع البصر إلى السماء، ينافي الخشوع، حرَّمه النَّبيُّ ﷺ وتوعد عليه.

وخلاصة ما سبق من أمر الخشوع: إنَّما يخشع من عرف قدر الصلاة، فكما أنَّ المرء ينبغي له أن لا يقف على شيء حتى يقف على حدوده، ويعرف مقاديره، فكذلك الصلاة، يجب على المسلم أنْ يعرف حدودها ومقاديرها ومعانيها، فمن لم يعرف قدرها فإنَّه لن يؤدّي حقها.

❀ ❀ ❀

(١) صحيح مسلم (٩٩٥).

الأذان

اللَّه أكــبـر كــل هـم يـنـجـلي	عـن قـلـب كـل مـكـبـر ومـهـلـل
ومــوحـــد لــلَّــه جـــلَّ جــلالـــه	فــالـشـرك عنه والضـلال بمـعـزل

عندما يكثر الصخب في الأسواق، والانشغال في المصانع والمزارع، وكدّ النَّاس في أعمالهم، ولعب آخرين بملذاتهم، ولهو آخرين في شهواتهم، وغفلة آخرين في سهواتهم، ونوم بعضهم في خلواتهم، حينها تكثر الزلات والخطايا، وتضيق الصدور، وتكثر الهموم والغموم، ويبتعد النَّاس عن ربهم، وينشغلون في حياتهم عن معادهم، عندها وفي كل وقت من أوقات الصلاة يشاء الله تعالى لصوت الحق أن يعلو، ولشعار المسلمين أن يرتفع، ولنداء الإيمان أن يصدع به رحمة من الله بعباده، ليرجعوا إلى ربهم، فيتصل قلب المؤمن بخالقه، ليجلو ما صار عليه من الصدأ، ويذهب عنه الهم والحزن، ويعيش في لقاء ربه وفي ظل رحمته، فيزهر ويسمو عن الدنيا وحطامها وملذاتها، إلى من بيده ملكوت السمٰوات والأرض، فينادي منادي الإسلام: الله أكبر الله أكبر، فتسمعه الآذان والقلوب تخشع، ويفر الشيطان ضارطاً من شدة الهلع، ويغفل عنه من تشاغل ورتع.

هذا هو نداء المسلمين إلى الصلاة، كلمات عظيمات، ينادى بهنَّ في كل يوم خمس مرات، لدعوة النَّاس إلى الصلاة، امتدح الله رافعها من النَّاس، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت]، وامتدحه رسول الله ﷺ، فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]،

(١) صحيح مسلم (٨٧٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ أَرْشِدِ الأَئِمَّةَ، وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ**»[(١)].

وأما كلمات الأذان:

فيقول المؤذن: **الله أكبر:** هنا ينادي الناس كل على حاله، فالله أكبر من سوقك وتجارتك، والله أكبر من عملك، والله أكبر من مالك وأهلك، وكل ما يدور في ذهنك فالله منه أكبر وأعلى، فاسعَ إلى الله، ولا تنشغل بما هو أدنى، عن الذي هو خير لك في دنياك ومعادك، واستشعر عظمة هذا النداء، وخذ بمجاميع قلبك إلى حيث أمر ربك.

أشهد أن لا إله إلا الله: كلمة التوحيد والإخلاص، ليخبر الناس أنه لا معبود بحق غير الله تعالى، فلا تنشغلوا بغيره عنه، ولا تستبدلوا ما أراده الله لكم من الخير بسفاسف الأمور، وقد صحّ في الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»[(٢)]. فجدد العهد مع الله ولا تكن من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥﴾ [الصافات].

أشهد أنَّ محمداً رسول الله: أقرُّ وأعترف أنَّ محمداً رسول ربه إلينا، وأنَّا مأمورون بطاعته واتباع سُنَّته، وأنَّ هذه الصلاة التي يدعى إليها لهي من أهم ما دعا إليه رسولنا وحبيبنا ﷺ، فعليك أيها المسلم باتباع ما أمر به رسول الله ﷺ.

وفي ذكر الشهادة بالرسالة لنبيِّنا محمد ﷺ مع الأذان إنجاز من الله تعالى لوعده مع نبيّه حيث قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ٤﴾ [الشرح]، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أصدق من الله قيلاً.

وفي هاتين الجملتين، تذكرٌ للإيمان وتجديدٌ له طاعة لله ولرسوله، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ**

(١) مسند أحمد (٧٨١٨)، سنن أبي داود (٥١٧)، جامع الترمذي (٢٠٧).
(٢) صحيح البخاري (٢٨٨٦).

الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰه إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بالله رَبّاً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالْإِسْلَامِ دِيناً، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(١).

قال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح: (**«أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ»**؛ أي: منفرداً بوحدانيته، **«لَا شَرِيكَ لَهُ»** في ذاته وصفاته، زيادة تأكيدٍ، **«وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ»** قدَّمهُ إظهاراً للعبودية وتواضعاً لحضرة الربوبيّة، **«وَرَسُولُهُ»** أَظهره تحدُّثاً بالنِّعمة، وفيهما إشارةٌ إلى الرَّدِّ على النَّصارى واليهود، والإضافةُ فيهما للاختصاصِ، والمرادُ بهما الفرد الكامل، الموصوف بهما، **«رَضِيتُ بالله رَبّاً»** تمييز؛ أي: بربوبيَّته، وبجميع قضائه وقدره، فإِنَّ الرضا بالقضاء باب الله الأعْظم، وقيل: حالٌ؛ أي: مرَبِّياً ومالكاً وسيِّداً ومصلحاً، **«وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»**؛ أَي: بجميعِ ما أُرسل به وبلَّغه إلينا من الْأُمور الاعتقاديَّة وغيرها، **«وَبِالْإِسْلَامِ»**؛ أَي: بجميع أَحكام الإِسلام، من الأَوامر والنَّواهي، **«دِيناً»**؛ أَي: اعتقاداً أَو انقياداً، وقال ابن الملك: الجملةُ استئنافٌ كأَنَّه قيل: ما سبب شهادتك؟ فقال: رضيت بالله، **«غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»**؛ أَي: من الصَّغائر)(٢).

حي على الصلاة، حي على الفلاح؛ أي: تعالوا إلى الفلاح والفوز والنجاة وإصابة الخير، قالوا: وليس في كلام العرب كلمة أجمَع للخير من لفظة الفلاح، ويقرب منها النّصيحة، والفلاح والفَلَح تطلقهما العرب أيضاً على البقاء.

فهذه دعوة من ملك الملوك لك أنت أيها العبد، للقدوم إلى أمر أعدَّه الله لعباده، فيه الخلاص من الذنوب والمعاصي، ومن سخط الله وعذابه، وفيه الفوز برضوان الله وجنانه.

عن عبد الله بن عمرِو بن العاص، أَنَّه سمع النَّبيّ ﷺ يقول: **«إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً، ثُمَّ سَلُوا الله لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا**

(١) صحيح مسلم (٨٧٧).
(٢) مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥٦٢).

لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(١).

وعن جابر بن عبد الله، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

قال ابن حجر في فتح الباري: (اللَّهُمَّ إنّي أسألك بحق هذه الدعوة التامة، والمراد بها دعوة التوحيد؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾، وقيل لدعوة التوحيد: تامة؛ لأنَّ الشَّرِكة نقص، أو التّامة التي لا يدخلها تغيير ولا تبديل؛ بل هي باقية إلى يوم النشور، أو لأنَّها هي التي تستحق صفة التَّمام وما سواها فمعرّض للفساد، وقال ابن التّين: وُصِفت بالتَّامة؛ لأنَّ فيها أتمَّ القول، وهو لا إلٰه إلا الله، وقال الطيبي: من أَوله إلى قوله: «محمد رسول الله» هي الدعوة التّامة، والحيعلة هي الصلاة القائمة في قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ويحتمل أن يكون المراد بالصلاة: الدعاء، وبالقائمة: الدائمة، مِن قام على الشيء، إذا داوم عليه، وعلى هذا فقوله: «**والصلاة القائمة**»، بيانٌ للدعوة التّامة، ويحتمل أن يكون المراد بالصلاة المعهودة المدعوِّ إليها حينئذ، وهو أظهر، قوله: «**الوسيلة**» هي ما يتقرب به إلى الكبير، يقال: توسّلت؛ أي: تقرّبت، وتطلق على المنزلة العليّة، ووقع ذلك في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم بلفظ: «**فإنَّها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله**»)(٣).

من حِكم الأذان: ذكر العلماء أنَّ للأذان حِكَماً عظيمةً، ومن هذه الحكم:

١ ـ إظهار شعار الإسلام.

٢ ـ إعلاء كلمة التوحيد.

٣ ـ رفع ذكر النبي ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٥).
(٢) صحيح البخاري (٦١٤).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٢/ ٩٥).

٤ ـ إثبات الرسالة.

٥ ـ الإعلام بدخول وقت الصلاة.

٦ ـ الدعوة إلى صلاة الجماعة.

٧ ـ إقامة الحجة على الجميع بالدعوة إلى الله العظيم الكبير.

إقامة الصلاة

ـ تكلمنا في الفصل السابق عن الأذان ومعانيه وكلماته وهي نفسها في الإقامة، لذلك سنتكلم هنا عن معنى إقامة الصلاة والمراد منها.

جاء في كتاب الله الأمر بالصلاة، وجاء فيه مدح المصلين، والحث على هذه الفريضة العظيمة، لكن هذا كله قد جاء بصيغة الإقامة، ففي الأمر قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يأت في القرآن الأمر بالصلاة إلا بلفظ الأمر بالإقامة، وما امتدحهم الله في كتابه إلا بلفظ الإقامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة]؛ بل إذا ذُكِر المصلون بغير إقامة فهي على سبيل الذمِّ غالباً، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون].

قال الطنطاوي في تفسيره الوسيط: (والمراد بإقامة الصلاة: أداؤها في مواقيتها، مستوفية لأركانها وشروطها وآدابها وخشوعها، من أقام الشيء إقامة: إذا قوّمه وأزال عوجه؛ لأنَّ الشأن في صلاة المؤمنين أن تكون: إحساساً عميقاً بالوقوف بين يدي الله، وانقطاعاً تامّاً لمناجاته، وتمثلاً حيّاً لجلاله وكبريائه، واستغراقاً كاملاً في دعائه)(١).

فلنعلم أنَّ الله تعالى يريدنا أن نكون مقيمين للصلاة لا مؤدين لها فقط.

ولإقامة الصلاة كما يريد الله تعالى لا بد من أمور ينبغي على المؤمن أن يحرص عليها:

١ ـ النية الصحيحة الصادقة؛ لحديث الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ،**

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (٦/ ٣١).

وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١).

٢ ـ التهيؤ للصلاة، وقد بيّنا كيفيّة التهيؤ للصلاة في هذا الكتاب.

٣ ـ أداؤها مع جماعة المسلمين، فقد جاء عن بعض أهل التفسير: (أقام الصلاة: صلاها جماعة)، قال عَبْدِ الله بن مسعود ﵁: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَداً مُسْلِماً، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَعَمْرِي، لَوْ أَنَّ كُلَّكُمْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الصَّفِّ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، فَيَعْمِدُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيُصَلِّي فِيهِ، فَمَا يَخْطُو خَطْوَةً، إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»(٢).

٤ ـ إتقان الصلاة بأركانها وواجباتها وسننها، كما جاء عن رسول الله ﷺ، قوله: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**»(٣)، ولهذا فإنَّه لابد للإنسان من التفقّه في أمور الصلاة، لتكون صلاته صحيحة، كما أمر الله تعالى، وكما جاء عن رسوله ﷺ، وقد جاء في القاعدة الفقهية: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وهذا أمر قد قصّر فيه كثير من الناس، والله المستعان.

٥ ـ الدعاء والتضرع إلى الله من أجل أن يتقبل الله صلاته، وأن يجعله مقيماً للصلاة، فقد أخبر الله حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في دعاءه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم].

---

(١) صحيح البخاري (١)، صحيح مسلم (٥٠٣٦).
(٢) صحيح مسلم (١٥٢٠).
(٣) صحيح البخاري (٦٣١).

٦ ـ أنْ يشعر العبد بتقصيره تجاه ربه، ويسعى جاهداً لنيل مرضاته، فيحسن العمل بكل أفراده ليقبل منه، ويكون من الفائزين.

٧ ـ الإكثار من النوافل، فقد ثبت في الحديث القدسي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»(١).

٨ ـ حب المساجد والتعلّق بها، فقد قال رسول الله ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكر ومنهم: «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ...**»(٢).

٩ ـ الحرص على الخشوع في الصلاة.

فإذا ما فعل العبد هذه الأمور وحرص عليها، فإنَّ صلاته ومن غير شك ستكون ناهية له عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

❀ ❀ ❀

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).
(٢) موطأ الإمام مالك (١٧٠٩).

صفة الصلاة

صحّ في الحديث، عنْ أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى اَلصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ اَلْوُضُوءَ، ثُمَّ اِسْتَقْبِلِ اَلْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اِقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ اَلْقُرْآنِ، ثُمَّ اِرْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِماً، ثُمَّ اُسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِساً، ثُمَّ اُسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِساً، ثُمَّ اُسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ اِفْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**»(١).

لا شك أنَّ الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء فإنَّه يقصده، ويتوجه إليه في أغلب أحيانه، فيكون قبلة كله متوجهاً إليه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، وهذا يختلف باختلاف موارد الناس، وهواياتهم، ودياناتهم، وغيرها.

لذلك كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقلّب وجهه في السماء، يطلب بلسان حاله قبلةً هي من أحب البلاد إلى الله وإلى رسوله، كما ثبت في الحديث عن عبد الله بن عدي، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إِلَى الله، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(٢).

حتى أنزل الله تعالى قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وبهذا جاء الأمر باستقبال بيت الله الحرام في الصلاة،

(١) صحيح البخاري (٧٥٧)، صحيح مسلم (٩١١).
(٢) جامع الترمذي (٣٩٢٥)، سنن ابن ماجه (٣١٠٨).

إذاً فلنستشعر هذا الحب، وهذه العظمة، وهذا التكريم والتعظيم عند كل صلاة نتجه بها إلى بيت الله الحرام.

وقد جاء في السُّنَّة تعظيم القبلة؛ لأنَّها جهة المواجهة مع ربنا تعالى، فقد جاء في الحديث عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: **إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ـ أَوْ: إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ ـ فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ،** ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَقَالَ: **أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا**»[١].

قال ابن بطال في شرح البخاري: (قال المهلب: فيه إكرام القبلة وتنزيهها؛ لأنَّ المصلي يناجى ربه، فواجب عليه أنْ يكرم القبلة مما يكرم منه المخلوقين إذا ناجاهم، واستقبلهم بوجهه؛ بل قبلة الله تعالى أولى بالإكرام، وقال طاوس رحمه الله: أكرموا قبلة الله لا تبزقوا فيها، وأبان ﷺ في هذا الحديث أنَّ معنى نهيه عن البزاق في القبلة إنَّما هو من أجل مناجاته لربه عند استقباله القبلة في صلاته، ومن أعظم الجفاء، وسُوءِ الأدب أن تتوجه إلى ربِّ الأرباب وملك الملوك، وتتنخم في توجهك، وقد أعلمنا الله تعالى، بإقباله على من توجه إليه)[٢].

ثم نكبّر، ولا يجزئ شيءٌ من الأذكار تنعقد به الصلاة غير التكبير، وذلك استشعاراً لعظمة من وجَّهنا إليه وجوهنا، فكما وجهنا الوجوه فلنوجه القلوب إلى الكبير، إذاً فلنترك كل ما هو دون هذا الكبير وراء ظهورنا، ولنستحضر عظمته وكبرياءه وهو يخاطبنا في صلاتنا وكما سيأتي لاحقاً.

والتكبير هذا لا يجزئ إلا قياماً ـ إلا لأهل الأعذار ـ، وذلك من تمام الإنابة والخضوع لربٍّ وسع كرسيه السمٰوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾، وروي عَنْ مُجَاهِدٍ أنَّه قَالَ: (مِنَ الْقُنُوتِ: الرُّكُوعُ وَالْخُشُوعُ وَطُولُ الرُّكُودِ ـ يَعْنِي طُولَ الْقِيَامِ ـ وَغَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الْجَنَاحِ، وَالرَّهْبَةُ لله،

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٥)، صحيح مسلم (٥٥١).
(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/ ٧٣).

كَانَ الْعُلَمَاءُ إِذَا قَامَ أَحَدُهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ يَهَابُ الرَّحْمَٰنَ أَنْ يَشُدَّ بَصَرَهُ أَوْ يُقَلِّبَ الْعِصِيَّ أَوْ يَلْتَفِتَ فِي الصَّلَاةِ أَوْ يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِلَّا نَاسِياً).

ثم يقرأ ما تيسر معه من القرآن قائماً أيضاً، وذلك مناسب لكلام ربنا، تعظيماً له وتكريماً، لذلك نُهي عن قراءة القرآن حال الركوع والسجود، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه، أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «**أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعاً أَوْ سَاجِداً**»[(١)].

قال بدر الدين العيني: (فإن قيل: ما الحكمة من النهي عن القراءة في حالتي الركوع والسجود؟ قلت: الذي يلوح لنا في هذا المقام، هو أنَّ النَّبيَّ عليه الصلاة والسلام أخبر الأمة عن انقطاع الوحي بوفاته، وعزَّاهم عن مبشرات النبوة، ثم نبَّههم على جلالة قدرها ما هو تارك فيهم من الوحي المنزل ـ وهو الكتاب العزيز، الذي لم يؤت نبيٌّ مثله ـ بقرينة مستكنة في صيغة النهي، وذلك أنَّ الركوع والسجود من باب الخضوع، وأمارات التذلل من العباد لجلال وجه الله الكريم، فنهى أنْ يقرأ الكتاب الكريم الذي عُظِّم شأنه، وارتفع محله عند هيئة موضوعة للخضوع والتذلل، ليتبين لأولي العلم معنى الكتاب العزيز، وينكشف لذوي البصائر حقيقة القرآن الكريم).

ثم ينحني متواضعاً لله، معظماً له، خاضعاً لأمره، راكعاً بجوارحه وقلبه، حتى يطمئن راكعا؛ أي: حتى تستقر أعضاؤه وهو راكع، فإنَّه إن هوى للركوع ثم رفع مباشرة من دون أن يمكث بمقدار ما تستقر أعضاؤه فإنَّه لم يطمئن، كما في حديث أبي مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ فِيهَا صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ**»[(٢)]، قال البغوي: (في الحديث دليل على وجوب إقامة الصلب في الركوع والسجود)[(٣)]، وهذا مناسب لتعظيم الربَّ سبحانه، وسيأتي.

---

(١) صحيح مسلم (١١٠٢).
(٢) سنن ابن ماجه (٨٧٠)، جامع الترمذي (٢٦٦)، سنن النّسائي (١٠٢٦).
(٣) شرح السنة للبغوي (٣/ ٩٨).

ثم يرفع قائماً: وهذا فيه جمال ولطف، هو الفصل بين الركوع والسجود بقيام، لتتميز الأركان.

ثم يخرّ ساجداً لله تعالى، ويمَكِّن أعضاءه من السجود، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ وَلَا يَكُفَّ شَعَراً وَلَا ثَوْباً: الْجَبْهَةِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ»(١). فيعطي كل عضو من أعضاءه حق السجود، فيمكّن جبهته وأنفه على الأرض، وهي أشرف أعضاء البشر، تواضعاً لربِّ البشر، وتذللاً لعظمته، وطاعةً لأمره، ورجاءً لرحمته، وخوفاً من عقابه، وأنْ يُسجد معه يداه وركبتاه ورجلاه، وفي هذا الموطن يكون الإنسان بأخفض ما يكون جسماً، لكنَّه بأرفع وأعلى حالاً، وأقربه إلى خالقه ومولاه، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق]، فبالسجود يكون القرب من الله، فدلّ هذا على أنَّ العبد كلما زاد تواضعه وخشوعه وخضوعه لله تعالى، كلما رفعه الله، وزاده قرباً إليه.

وقد صحّ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(٢). والسجود يتكرر في الركعة الواحدة مرتين على خلاف الركوع، فإنَّه لا يؤتى به إلا مرةً واحدةً، وقيل في حكمة هذا: إنَّما هو ترغيم للشيطان، فهو أُمر بالسجود فلم يسجد، ونحن نسجد مرتين طاعة لله، وترغيماً له، وقيل: بل ذلك لفضل السجود، وما فيه من القرب من الله، والتزود من فضله وغفرانه، فأراد الله بحكمته ورحمته بعباده أن لا يحرمهم من هذا الفضل العظيم، فشرع لهم تكرار السجود، لزيادة الفضل والقرب، وقال غيرهم: السجدة الأولى: بمثابة الامتثال لأمر الله تعالى، والثانية: بمثابة الشكر، وقال آخرون: الأولى: شكر لله تعالى على نعمه، والثانية: لدوام تلك النعم على العبد، والله أعلم.

ثم شرع بعد ذلك الجلوس بين السجدتين، لتمييز السجدتين عن

---

(١) صحيح البخاري (٨٠٩).
(٢) صحيح مسلم (١١١١).

بعضهما، وليتذكر العبد كيف كان حاله قبل الجلوس، من القرب من الله والأنس به، وكيف أنه سيرجع إلى تلك الحالة مرة ثانية.

ثم شُرِع للعبد الجلوس للتشهد: حين اقترب العبد من نهاية صلاته، وأقبل على الانصراف منها، شُرِع له أن يجلس الجلسة الأخيرة، ليلقي التحية على ربه، مستأذناً بالانصراف من هذه العبادة العظيمة، ومقرّاً له الألوهية، وموحداً له، وشاكراً على ما أنعم عليه من أداء الصلاة، ثم بعد ذلك يسلم على يمينه وشماله، قال الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس].

قال المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله؛ لأنَّه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثمّ الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمدٌ لله وثناءٌ عليه، وتمجيدٌ له ودعاءٌ، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيدٌ لله وتعظيمٌ له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع، ورفع الرأس تعظيماً لله وإجلالاً له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللاً له، وإذعاناً بالعبودية)[١].

❀ ❀ ❀

(١) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (٢٧٨).

دعاء الاستفتاح

لكل شيء مقدمة تكون بمثابة الاستعداد للدخول فيه، وقد شرع الله لنا أن نقدِّم بين يدي الصلاة بمقدمة تليق بهذه العبادة العظيمة، فهذه المقدمة تارة تكون دعاءً، وتارة تكون ثناءً على الله تعالى، وهي على ما سنبيِّنه إن شاء الله.

وردت في أذكار الاستفتاح عدة روايات منها:

١ - عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسْكُتُ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَبَيْنَ الْقِرَاءَةِ إِسْكَاتَةً، قَالَ: أَحْسِبُهُ قَالَ: هُنَيَّةً فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله إِسْكَاتُكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: **أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»(١)، وفي هذا الدعاء دلالة على وجوب اعتراف العبد بذنوبه وخطاياه، فمن تأمل هذا الدعاء وجد تكرار قوله: «**خطاياي**» ثلاث مرات، من باب التأكيد على ذلك الأمر، وهذا له أثره في طرد العجب ومعرفة قدر النفس، فيتقرب بذلك من الله جل جلاله، فيتقدم لمناجاته حيث يعترف العبد بذنوبه وخطاياه، ويطلب من الله تعالى أنْ يمحوها عنه لعلمه بأثرها على مناجاته لربه، فكلما سلم العبد منها وتطهر من آثارها كانت المناجاة أتم، **وفي هذا الدعاء ثلاث مراتب:**

المرتبة الأولى: في قوله: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»، وهذه مرتبة المباعدة، وهي حالة تصدق على العبد قبل وقوعه في الذنب، فإنَّه يسأل ربه أن يباعد بينه وبين خطاياه أمداً بعيداً،

(١) صحيح البخاري (٧٤٤)، صحيح مسلم (٢٢٧٦).

فالإنسان يطلب من الله تعالى هذا الأمر في هذه الحياة الدنيا حيث قبول العمل قبل أن يأتي يوم القيامة، فيتمنى ذلك ولكن قد فات الأوان، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران].

وطلب المباعدة عن المعاصي يشمل: مباعدة مكانية، ومباعدة زمانية؛ فالمباعدة المكانية أن يسأل ربه أن يباعد بينه وبين ذنوبه من حيث المكان، فلا يكون قريباً من مواقع حصول المعاصي ومواطنها فإنَّ ذلك يسهل من الوقوع فيها، والمباعدة الزمانية: أن يسأل ربه أن يباعد بينه وبين زمان المعصية، فإنَّ المؤمن لا يزال في عافية حتى يقع في الذنوب.

المرتبة الثانية: في قوله: «**اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ**»، وهذه مرتبة محو الذنوب وإزالتها، فيسأل الله تعالى أن يغفر ذنوبه ويمحوها عنه، وفي تشبيه النفس المؤمنة بالثوب الأبيض دلالة على أنَّ نفس المؤمن في الأصل أنَّها صافية نقية فإذا أصابت شيئاً من الذنوب ذهب من صفائها على حسب الذنب الذي أصابته، فإن غفرها الله له ومحاها عنه عادت إلى الصفاء الذي كانت عليه، وفيه إشارة إلى أنَّ نفس المؤمن تتأثر بالذنب كما يتأثر الثوب الأبيض بالدنس والقذر أكثر من غيره.

المرتبة الثالثة: في قوله: «**اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»، وهذه المرتبة هي لإزالة أثر الذنوب التي وقع فيها العبد، وتصدق هذه الجملة على من واقع الذنب ثم تاب منه، فإنَّه يسأل ربه أن يزيل أثر الذنب عنه فإنَّ للذنوب آثاراً عظيمة، فكم من نظرة سببت ندامةً وأزالت علماً مع أنَّها تغفر لصاحبها، وهذا والله أعلم حتى لا يستوي من وقع في الذنب مع من لم يقع فيه، فيطلب من الله تعالى أنْ يزيل عنه هذا الأثر، وسبب اختيار الثلج والبرد والله أعلم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لما كانت الذنوب تورث حرارة النار ناسب أن يذكر الماء لإطفائها والثلج والبرد لتبريد حرارتها)، وفيه طلب العبد أن يقف بين يدي ربه كالثوب الأبيض لا دنس فيه ولا قذر، فعن

حذيفة رضي الله عنه أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادّاً كَالْكُوزِ مُجَخِّياً، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»(١).

٢ ـ عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»(٢).

لما علم العبد أنَّ الله هو الذي أنشأ خلق السمٰوات والأرض، وأتقن صنعها، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]، وعلم أنَّه لا خالق غيره، ولا ربَّ سواه، توجه إليه بهذه الكلمات، فقال: «**وجهت وجهي**»؛ أي: توجهت إلى الله بعبادتي، مخلصاً له بقلبي وجوارحي، طالباً منه الأجر والثواب، «**حنيفاً**»؛ أي: مائلاً إلى الإسلام عن الشرك، جاعلاً صلاتي ودعائي وعباداتي وكل طاعاتي خالصة لله ما حييت، وما يكون لي بعد الممات كلها خالصة لله، يقول ربنا، آمراً نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ

---

(١) صحيح مسلم (٣٨٦).
(٢) صحيح مسلم (١٨٤٨).

﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الانعام].

فلنستشعر عند هذا الدعاء أننا نجيب أمر ربنا، فنوافق رسول الله ﷺ في طاعة الله، وامتثال أمره، فبعد أن توجه العبد إلى ربه بالإخلاص الذي أمر به، انتقل إلى التعظيم لله والإقرار له بالربوبية، والاعتراف عنده بالذنب والتقصير في حقه، طالباً منه بذلك غفران تلك الذنوب كلها، فإنَّه لا يقدر على ذلك غيره، لا ملك مقرب ولا رسول مرسل، ثم يدعو بأنْ يوفقه الله تعالى إلى أحسن الأخلاق، قال القرطبي في المفهم: (لأكملها وأفضلها: وهي الخُلق الصحيح، والكفّ عن القبيح، وقيل: القيام بالحقوق، والعفو عن العقوق: كما قال: أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك)[(١)].

وقد أجاب الله تعالى دعاء نبيّه ﷺ في ذلك، فجمع له منها ما تفرق في العالمين، حتى قال له تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، لبيك يا ربّ، فأنا مقيم على طاعتك، متّبع لأوامرك، مستقيم على أمرك طاعة بعد طاعة، فالخير كله منك، وهذا فيه حسن التأدب مع الله، والثناء عليه بنسبة الخير إليه، وحصرها بين يديه، الشر ليس إليك، قال الشيخ عبد الرحمٰن البراك: (فهو لا يضاف إلى الله اسماً ولا صفة، لكن السوء والشر، والحسن والقبيح يوجد في مفعولات الله ـ أي: مخلوقاته ـ أمَّا أفعاله فكلها عدل وحكمة...).

ثم يقول: «**أنا بك وإليك**»: فلا انتماء لي إلى غيرك، ولا ألوذ إلا بك، فبك نحيا، وإليك نلجأ ونعود، تقدستَ وتنزهتَ عن النقائص، وتعاليت في ذاتك وأسماءك وصفاتك، فاغفر لنا ذنوبنا، قال الراغب الأصفهاني: (الغفْرُ: إلباس ما يصونه عن الدَّنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء، واصبغْ ثوبك فإنَّه أغفر للوسخ، والغُفْران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب)، اللَّهُمَّ وفقني للرجوع إلى طاعتك والإنابة إليك والثبات على ذلك.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٣٥).

نجد في هذا الدعاء أنَّه قد جمع خيري الدنيا والآخرة، وجمع أمور التوحيد، واحتوى بعضاً من أركان الإيمان، فحريٌّ بنا أن نتعلمه وندعوا به، لننال نصيباً وافراً من خيره إن شاء الله تعالى.

٣ ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلٰهَ غَيْرُكَ**»(١).

قال الشيخ عطية محمد سالم: (التسبيح عبادة جميع الكائنات؛ بل إنَّ ربَّ العزة قد سبح نفسه، والتسبيح معناه عظيم جداً، كما في قوله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٢)، وعند مسلم: «**الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض**»، وهل ثواب كلمتين خفيفتين على اللسان تملآن ما بين السماء والأرض ـ ومسيرة ذلك خمسمائة عام ـ لمجرد أنّها مرَّت على طرف اللسان: سبحان الله والحمد لله؟ بل لما تضمنته كلمة: (سبحان الله) من جليل المعاني....) إلى أن قال: (وأصل المادة: (سَبَحَ)، وإذا جئنا إلى المعنى المحسوس في (سَبَحَ)، فإنَّ سبح يسبح بمعنى: الذي نزل إلى الماء ليسبح، لئلا يغرق! فالسباحة وسيلة للنجاة، والسباحة وسيلة لعبور النهر، لذا قالوا: المعنى الذي في سبحان مأخوذ من أصل الوضع والترتيب للسباحة، فكما أنَّ السابح في الماء بسباحته ينجو من هلاك الغرق، فمن يسبّح الله ينجو من هلاك التشبيه، ووصف الله تعالى بما لا يليق به، والسبَّاح ينجو بنفسه، فكذلك المسبّح لربه ينزهه عما لا يليق بجلاله، وكذلك السابح يصل إلى غايته، وكذلك من يسبّح ربه يصل إلى مرضاة الله)(٣).

إنَّ (أل) في الْحَمْدُ لله جاءت هنا للاستغراق؛ أي: استغرقت جميع

---

(١) مسند أحمد (١١٤٣٧)، سنن أبي داود (٧٧٥)، جامع الترمذي (٢٤٣)، سنن النسائي (٨٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٧٥٦٣)، صحيح مسلم (٢٦٩٤).

(٣) شرح بلوغ المرام، للشيخ عطية محمد سالم.

المحامد كلها لله، ولا يحمد لكمال ذاته إلا الله، فإذا اجتمعت «**سبحان الله**» التي تنفي عن الله كل ما لا يليق بجلاله، وتنزهه عن كل نقص وعيب، معها «**الحمد لله**» التي تثبت له جميع صفات الجلال والكمال، فقد اجتمع طرفا التوحيد لله في قولك: سبحان الله وبحمده، ومن هنا كانتا مع خفتهما على اللسان ثقيلتان في الميزان، تملآن ما بين السماء والأرض، ثم إنَّ اسم الله تعالى مبارك في ذاته وفي دلالاته؛ بل أسماؤه كلها مباركة، فاسم الله يُدخل البركة على كل شيء ذكر عليه، ولعله جاء لزيادة بركة الصلاة، والله أعلم، (والجَدُّ): العظمة، «**وتعالى**»: من العلوّ؛ أي: علت عظمتك، ولا معبود بحق سواك، وهذا الدعاء فيه ما فيه من حسن الثناء على الله والتبرك بأسمائه، والإقرار له بالوحدانية، ليَدخل بعده العبد إلى ربه معظماً له ومنزهاً له عن النقائص، وموحداً له عن الشريك، ومتباركاً به.

❁ ❁ ❁

الاستعاذة

إنَّ الله تعالى لمّا أمر الملائكةَ بالسجود لآدم أطاعوا جميعاً، وعصى إبليس، فطرده الله من رحمته، وتوعده ربه بالعذاب الأليم، فما كان منه إلا أن طلب من ربه أن يمهله إلى يوم القيامة، لا ليتوب بل ليُضِل النَّاس عن صراط ربهم المستقيم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف].

وقد دلّت هذه الآيات على أنَّ إبليس قد توعد عباد الله في كل صراط يسعون فيه إلى ربهم، ليصدهم عنه، ونحن عباد الله، ضعفاء إلا بربنا، ليس لنا ناصر غير الله، وليس لنا معين إلا هو، وليس لنا مأوى إلى غيره، وقد حذرنا ربنا من فتنة الشيطان، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف]، فالشيطان يرانا ونحن لا نراه، فأنَّا لنا به، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال لي شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونوّر ضريحه يوماً: إذا هاش عليك كلب الغنم فلا

تشتغل بمحاربته، ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به، فهو يصرف عنك الكلب، ويكفيكه)[١]، إذاً لا حيلة لنا إلا بالاستعاذة بربنا من الشيطان الرجيم.

لذا؛ فإنَّه لما كانت الصلاة أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه، وأنفع ما يكون له في الدنيا والآخرة، فإنَّ هذا العدو سيعمل ما بوسعه، ليصد العبد عن صلاته، فإنْ لم يستطع فيشغله عن الخشوع والتدبر إلى الغفلة والسهو عن هذه القربة العظيمة، لذلك شرع الله لنا قبل القراءة أن نتوكل على الله، ونستعين به من هذا العدو، ليكفينا ربنا شره، ويحفظنا من وساوسه وكيده، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل].

قال القاسمي: (لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس، يثير الشبهات بوساوسه، ويفسد القلوب بدسائسه، أُمِر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجئ إليه عند تلاوة القرآن من وسوسته؛ لأنَّ قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله، واللياذ بجواره منه، وقد بيَّنت آية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج]، أنَّ هذه عادة الشيطان، إثرَ ما يتلوه كلُّ نبيّ على أمته من الأحكام المتجددة، التي يوحى فيها فيه السعادة للبشر، أنَّه يحوّل عنها الأنظار، ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله، لكنَّ الله تعالى يُحكِم آياته وينسخ شبه الشيطان، ليُحِق الحق ويُبطِل الباطل، فلما كانت هذه عادته، ولها من الأثر ما لها، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ أثر وسوسته إنَّما يكون فيمن له سلطان عليهم؛ أي: تسلّط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته، وأمَّا الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم، فصبروا على المكاره، ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات، فليس له عليهم سلطان، فهم يضادون أمانيه، ويهدمون كل ما يلقيه لأنَّ إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن

(١) أسرار الصلاة، لابن القيم (١١٥).

مكرِه، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره، و(الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة؛ أي: الملعون المرجوم باللعنة، أو المطرود، أو المرجوم بالكواكب، والضمير في (به) لربهم، والباء للتعدية، أو للشيطان، والباء للسببية؛ أي: بسببه وغروره ووسوسته، ورجح باتحاد الضمائر فيه)(١).

وفي الاستعاذة اعترافٌ من العبد بضعفهِ، وحاجته إلى رَبِّه تبارك وتعالى، كي يَقِيهِ شَرَّ الشَّيطان وشِركِه وشَرَكه، فكان لزاماً على العبد أَنْ يستشعر المعنى، وهو حاجته إلى ربِّه ومولاه كي يكفيه شرَّ إبليس والشَّيطان أجمعين.

وعلى العبد أَنْ يستشعر عقيدة الولاء والبراء في ذلك، فلمَّا كان يستعيذُ بالله من الشَّيطان فعليه أَن يتبرَّأَ من كلِّ شيطانٍ من شياطين الإنس والجنِّ ومن كلِّ أَعمال الشَّيطان، فاتخاذُ موقف العداوة لازم كما بيَّنه القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر]، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره كلاماً بديعاً يناسب هذا المقام فقال:

(قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت]، قال: فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أنَّ الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب إلى الموالاة والمصافاة، ويأمره بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، (٦/ ٤٠٧).

محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل)[١].

والعبد لمّا يقرأ القرآن، به حاجة إلى فهم المعنى الصحيح للآية الكريمة، والمفردة القرآنية، وانتظام سلك الآيات، ويحذر من أن يفهم الآية فهماً مخطئاً، وفي هذين الحالين به حاجة إلى أن يقرأ القرآن مع التدبر والخشوع والخضوع والافتقار للعلي القهار، ففي الاستعاذة تبرؤ إلى الله واحتماء بجناب الله من الفهم الخطأ، إذ كلّ بدعة في الأرض فسببها سوء الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ، وكذا يحذر المسلم من أن يقرأ القرآن فلا يجاوز حنجرته، وانظر: صحيح البخاري ففيه بيان أنَّ ضلال من ضل سببه عدم الفهم عن الله وعن رسوله، فليحذر المؤمن من أنْ يشابه أهل الكتاب في أن يقرأ هذا الكتاب العزيز قراءةً أمِّية بعيدة عن إدراك المعنى.

لذا؛ فكلمّا استعذت وتأملت معنى الاستعاذة استذكر الافتقار الكامل إلى الله الغني الحميد الكريم، واستذكر أنَّك تتبرأ من حولك وقوّتك، معلِناً الضراعة والتّسليم لله في أن تكون في حماه، والعبد حين يقوم بذلك لأنَّه يعلم حاجته إلى كتاب الله، وإلى تدبر آياته، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام]، وعلى المسلم أن لا يغفل عن معنى الاستعاذة والصدق في سؤال الله تعالى أن يعيذه من شرّ الشيطان، وأن يمتثل أمر الله في معاداة الشيطان، قال ابن جُزَي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من استعاذ بالله صادقاً أعاذه، فعليك بالصدق، ألا ترى امرأة عمران لـمَّا أعاذت مريم وذريتها عصمها الله، ففي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِن مَولودٍ إلا نَخَسَهُ الشَّيطان فَيَسْتَهِلُّ صَارِخَاً إلا ابن مَرْيَم وأُمّه**»[٢])[٣]، إذاً؛ فالاستعاذة إقرار بالعجْز والضَّعف، واعترافٌ من العبد بقدرة الله، وأنَّه الغني القادر على دفع جميع ما يضرّ العبد.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١١٠).
(٢) صحيح مسلم (٦٢٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (تفسير ابن جزي) (١/ ٤٧).

وفي أمر قارئ القرآن بتقديم التعوذ على القراءة إشارة إلى أنَّه يتعيّن على قارئ القرآن أن يجتهد في تصفية سره وجميع أمره لأجل أن يتفرّغ قلبه لفهم خطاب الرحمٰن، فيقول قارئاً: «**أَعوذُ بالله**» هو في التَّقدير: سؤال الله ﷻ من فضله، وفي العدول إلى لفظ الخبر فائدة التَّفاؤل بالوقوع، و«**من الشَّيطان**»: اسمٌ لكلِّ عاتٍ متمرِّد من الجنِّ والإِنس، و«**الرَّجيم**»: اللَّعين والمطَّرود.

❀ ❀ ❀

سورة الفاتحة

(السبع المثاني، القرآن العظيم، أُم الكتاب، أُم القرآن، فاتحة الكتاب، الوافية، الكنز، الشافية، الكافية...).

وكثرة الأسماء دليل على عظمة المسمى، وكيف لا وهذه السورة أعظم سورة في كتاب الله تعالى، وفيها أسرار ومعاني لا يعلمها إلا الذي أنزلها على رسولنا ﷺ، ولكثرة حِكَمها وفضلها، ولعلو شأنها، ورفعة قدرها من بين كلام ربنا، ولما فيها من المعاني الجزيلة، والكنوز الذخيرة، والدرر المصونة، والكلمات العظيمة، والآيات الباهرة، شُرِع لنا أن تكون هذه السورة المباركة ركن من أركان الصلاة، فلا تصح الصلاة إلا بها، فالعبد يكررها كل يوم سبعة عشر مرة في فروضه فقط، وهي مع ذلك عذب معين لا ينفد، وحِكَم ومعاني لا تنقضي، وإرواء لقلوب المؤمنين العطشى، للارتواء من كلام ربهم، والزيادة من فضله، فهي غذاء روح العُبّاد، وأنس حياة النّسّاك، ولذة نعيم الموحدين، ولهذا سنتكلم عن بعض فضائل هذه المعجزة العظيمة.

فهذه السُّورة العظيمة لها فضائلُ وخصائصُ عديدةٌ، ولم يثبت في فضائلِ شيءٍ من السُّور أكثر مما ثبت في فضلِها.

الفضيلة الأولى: أنَّها أعظمُ سورةٍ في القرآن، فقد ثبت في الحديث، عن أبي سعيدٍ بن المـُعلَّى، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أعلِّمك سورةً هي أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن تخرجَ من المسجدِ؟**»، قال: فأخذ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرج من المسجد قلتُ: يا رسول الله، إنَّك قلتَ: لأُعلمنَّك أعظم سورة في القرآن، قال: «**نعم، الحمدُ لله ربِّ العالمين، هي السبعُ**

المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته»[(١)]

وهذا الحديث صحيح صريح في أنَّ الفاتحةَ أفضلُ سورِ القرآن، وقد حصل لأُبي بن كعب رَضِيَٰٓلِلَّهُعَنهُ نحو هذا.

الفضيلةُ الثانية: أنَّه لم ينزل في القرآن، ولا في التَّوراةِ، ولا في الإنجيلِ، مثلُها، فقد صحّ عن أبي هريرةَ رَضِيَٰٓلِلَّهُعَنهُ، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَٰٓلِلَّهُعَنهُ، أنّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما أنزل الله تبارك وتعالى في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ مثل أمّ القرآن، وهي السَّبعُ المثاني**»[(٢)].

وروى سعيد بن جبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَٰٓلِلَّهُعَنهُمَا، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر]، قال: (هي أمّ القرآن، استثناها الله تعالى لأمَّة محمدٍ، فذخرها لهم، ولم يُعْطها أحداً قبل أمَّة محمد).

الفضيلةُ الثالثة: أنَّ هذه السُّورة مختصَّةٌ بمُناجاةِ الرَّبِّ تبارك وتعالى، ولهذا اختُصَّت الصَّلاةُ بها، فإنَّ المصلِّي يُناجي رَبَّه، وإنَّما يناجي العبد ربَّه بأفضل الكلام وأشرفه، وهي مقسومةٌ بين العبد والرَّب نصفين، فنصفُها الأول ثناءٌ على الربِّ عَزَّوَجَلَّ، والرَّب تعالى يسمع مناجاة العبد له، ويردُّ على المناجي جوابه، ويسمعُ دعاء العبد بعد الثناء، ويجيبه إلى سؤاله، وهذه الخصوصيّةُ ليستْ لغيرها من السُّورِ، ولم يثبت مثل ذلك في شيءٍ من القرآن، إلا في خاتمة سُورة البقرة، فإنَّها مما خُصّت به أمة محمد، ويُجابُ الدُّعاءُ بها كدُّعاءِ الفاتحة.

وقد صحّ عن أَبي هريرة رَضِيَٰٓلِلَّهُعَنهُ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهْيَ خِدَاجٌ ـ ثَلَاثاً ـ غَيْرُ تَمَام**». فَقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ؟، فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ

(١) صحيح البخاري (٤٤٧٤).
(٢) مسند احمد (٢١٠٩٤)، جامع الترمذي (٣١٢٥)، سنن النسائي (٩١٣).

يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي ـ وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ـ فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»(١).

فسمَّى لنا ربنا هذه السورة العظيمة بالصلاة، لعظمها، ولاحتوائها على معاني الصلاة وحكمها، وكونها جزءاً من أجزاءها، وفي قوله: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**»، فهذا لعمري هو الفوز العظيم، وهو الفضل المبين، وهو التكريم الذي لا يفوقه شيء من ملذات الدنيا وزخارفها، فالله تعالى يجعل لك نصيباً أيها العبد من أعظم كلامه، فحسبك به شرفاً، وكفاك به رتبة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في «فتح الباري»: (وذكر ردَّه عليه في آيات الفاتحة إلى آخرها، فمن استشعر هذا في صلاته، أوجب له ذلك حضور قلبه بين يدي ربه، وخشوعه له، وتأدبه في وقوفه بين يديه، فلا يلتفت إلى غيره بقلبه ولا ببدنه، ولا يعبث وهو واقف بين يديه، ولا يبصق أمامه، فيصير في عبادته في مقام الإحسان، يعبد الله كأنَّه يراه، كما فسر النَّبيَّ ﷺ الإحسان بذلك في سؤال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له، وقد سبق حديثه في كتاب: الإيمان، وخرج النسائي من حديث ابن عمر، قال: أخذ النَّبيُّ ﷺ ببعض جسدي، فقال: «**أعبد الله كأنك تراه**»، وقد كان ابن عمر قَبِل هذه الوصية وامتثلها، فكان يستحضر في جميع أعماله وعباداته قرب الله منه، واطلاعه عليه، وكان عروة بن الزبير قد لقيه مرة في الطواف بالبيت، فخطب إليه ابنته سودة،

(١) صحيح مسلم (٩٠٤).

فسكت ابن عمر ولم يرد عليه شيئاً، ثم لقيه بعد ذلك بعدما تقدم المدينة، فاعتذر له عن سكوته عنه: بأنَّا كنا في الطواف، نتخايل الله بين أعيننا، وقد أخبر الله تعالى بقربه ممن دعاه، وإجابته له، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦])[١].

من أجل ذلك فقد شرع الله تعالى لعباده تكرار سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة، ومن مقاصد هذا التكرار: أنَّ العبد يطالع نعم الله تعالى، ويطالع نفسه بإزاء ذلك، هل أدى شكر النعم أم لا؟ قال ابن رجب عليه رحمة الله: (وقد يتولد الحياء من الله من مطالعة نعمه، ورؤية التقصير في شكرها، فإذا سُلِب العبد الحياء المكتسب والغريزي لم يبق له ما يمنعه من ارتكاب القبيح والأخلاق الدنيّة فصار كأنَّه لا إيمان له)، ولا شك أنَّ المرء لا يستطيع إحصاء النّعم فضلاً عن أداء حقها تاماً بالشكر، فيعيش بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، ويعيش بين الحب والتذلل لله، إذ مطالعة النعم تورث حبّاً ومشاهدة تقصير النفس تورث ذلّاً، وهذه هي العبودية (حب كامل وذل تام)، وهو من مقاصد قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

الفضيلةُ الرابعة: أنَّها متضمِّنة لمقاصد الكتبِ المنزَّلة مِن السّماء كلها، وقد ذكر ابن أبي حاتمٍ بإسناده عن الحسن، قال: (أنزل الله سُبحانه أربعمائة كتاب وأربعة كتب، جمعها في أربعة كتبٍ: التَّوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن، وجمع الأربعة في القرآن، وجمع القرآن في المفصَّل، وجَميع المفصّل في الفاتحة وجمع عِلم الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾).

ويشهد لهذا تسميتها: أمَّ الكتاب، وأمُّ الشيء: أصله ومجتمعه.

وبيان اشتمال هذه السُّورة على جميع مقاصدِ الكتب المنزَّلة على وَجه الاختصار:

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٣/ ١١١).

أنَّ الله سبحانه وتعالى إنَّما أرسل الرُّسل وأنزل الكتب دعوةً للخلق إلى معرفته وتوحيده في العبادة، ومحبته، والقرب منه، والإنابة إليه، هذا هو مقصود الرِّسالة، ولبُّها، وقُطبُ رحاها الذي تدور عليه، وما وراء ذلك فإنَّها مكملاتٌ ومُتممات ولواحقٌ، فكلُّ أحدٍ مفتقرٌ إلى معرفة ذلك علماً، والإتيانِ به عملاً، فلا سعادة للعبد ولا فلاح ولا نجاة بدون هذين المقصدين.

وسورةُ الفاتحةِ مُشتملةٌ على مَقاصِد ذلك كلّه لأنَّها تضمَّنت التَّعريف بالربِّ سبحانه بثلاثة أسماء، ترجعُ سائرُ الأسماء إليها، وهي: (اللهُ) وَ(الرَّبُّ) و(الرَّحمٰنُ)، وبُنِيَتِ السّورة على الإلٰهية والربوبية والأسماء والرحمة، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: مبنيٌّ على الإلٰهية، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: مبنيٌّ على الرُّبوبيَّة، وطلبُ الهداية إلى صراطه المستقيم: مبنيٌّ على الرّحمة، والحمد: يتضمَّنُ الأمورَ الثلاثة، فهو تعالى محمودٌ على إلهيته وربوبيَّته وأسمائه ورحمته.

كما تضمَّنت السّورة: توحيد الإلٰهية والربوبيَّة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولـمَّا كان كلُّ أحد محتاجاً إلى طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وسلوكه علماً ومعرفةً، ثم عملاً وتلبُساً، احتاج العبد إلى سؤال ذلك وطلبه ممن هو بيده، وكان هذا الدُّعاء أعظم ما يفتقر إليه العبد ويضطرُّ إليه في كلِّ طرفة عينٍ.

الفضيلةُ الخامسة: أنَّ سورة الفاتحة شفاءٌ من كلِّ داءٍ، فهي شفاءٌ من الأمراض القلبيَّة، وشفاءٌ من الأسقام البدنيَّة، والسِّر في ذلك: أنَّ القرآن كلَّه شفاءٌ عامٌ، فهو شفاء لأدواء القلوب من الجهل والشك والريب وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وهو أيضاً شفاء لأدواء الأجساد، وقد وصفه الله عز وجل بأنَّه شفاء مطلق في غير موضعٍ من كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و(مِنْ) هُنا: لبيانِ الجنسِ، لا للتبعيضِ، فالقرآن كله شفاء، والفاتحة أعظم سورةٍ فيه، وقد احتوت على جميع معاني

القرآن ـ كما ذكرنا سابقاً ـ، فلها من خصوصية الشفاء ما ليس لغيرها، ولم يزل العارفون يتداوون بها من أسقامهم، ويجدون تأثيرها في البُرْءِ والشفاء عاجلاً، ولكن هٰهنا نكتةٌ ينبغي التفطُّنُ لها، وهي: أنَّ الرُّقى والتَّعاويذ بمنزلة السلاح، والسلاح يحتاج حتى يؤثر إلى قوة الضَّارب به، وكون المحل قابلاً للتأثير، فالسلاح بضاربه لا بحدِّه، فمتى كان السلاح سلاحاً تامّاً في نفسه، لا آفة فيه، والسَّاعد الضَّارب به قويٌّ، والمضرُوب قابلٌ للقطع، أثَّر القطع لا محالة، ومتى تخلَّف شيءٌ من هذه الثَّلاثةِ تخلَّف تأثيره.

الفضيلةُ السادسة: إنَّ قراءة الفاتحةِ يحصل بها كمال الصَّلاة وقبولها، وبدونِها تكون الصَّلاةُ خِدَاجاً؛ أي: ناقصةً غيرَ تمام؛ بل لا تكون الصَّلاةُ مجزيةً مقبولةً بدون تلاوتها، فإذا تُليت في الصَّلاة صارت الصَّلاة تامةً مجزيةً.

الفضيلة السابعة: إنَّها نور وسرور وبشارة، كما تقدم معنا في موضع سابق.

الفضيلة الثامنة: إنَّها تنمي في القلب القدرة على تحمل تكاليف الدين، من الأفعال والتروكات، والصبر على المقدورات المؤلمة؛ لأنَّها تعرِّف الإنسان من هو، وتعرِّفه بربه، فتجعل فيه القوة والطاقة على الثبات لأجل الدين.

الفضيلة التاسعة: إنَّها تشتمل على ركائز العبودية القلبية، والتوحيد لله، وشملت موضوعات الدِّين، وقد تقدم ذلك.

❁ ❁ ❁

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بما أنَّ ذات الله تعالى أشرف الذوات، فكذلك ذكره أشرف الأذكار، واسمه أشرف الأسماء، فكما أنَّه في الوجود سابق على كل ما سواه، وجب أن يكون ذكره سابقاً على كل الأذكار، وأن يكون اسمه سابقاً على كل الأسماء، وعلى هذا التقدير فقد حصل في لفظ الاسم هذه الفوائد الجليلة).

إنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قد نزل على رسولنا ﷺ أوَّل ما نزل من عند ربه، قائلاً له: اقرأ بسم ربك الذي خلق، فكان هذا درساً عظيماً، من ربِّ الأرض والسماء لرسوله، ولنا اقتداء به، ليكون اسم الله هو بركة كل شيء، وهو خير ما تفتتح به الأمور.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ الله تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه، أدّب نبيَّه محمداً ﷺ، بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدَّم إليه في وصفه بها قبل جميع مُهمَّاته، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلَّمه إياه منه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون بها، وسبيلاً يتَّبعونه عليها، فبه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: (بسم الله) على من بطن من مراده الذي هو محذوف)[(١)].

فإذا قال القارئ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فالتقدير: بسم الله أبدأ قراءتي، معتمداً عليه، متوكلاً ومستعيناً به.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) (١/ ١١٤).

قال ابن كثير: (بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمٰن لأنَّه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأنَّ التسمية أولاً إنَّما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص)[(١)]. وسنتكلم عن هذه الأسماء الحسنى في مكانها من سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

قال الإمام الطبري: (معنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً، دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبّههم عليه، ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله، أولاً وآخراً...)[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والرب: هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى، ولا يستعمل الرب لغير الله؛ بل بالإضافة، تقول: رب الدار كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عَزَّ وَجَلَّ)[(٣)].

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: هو خبرٌ يخبر الله تعالى به أنَّه المستحق للحمد، وهو متضمنٌ لمعنى الإنشاء؛ أي: قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النمل]، وجاء الأمر بذلك في مواطن أخرى، والألف واللام في

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) (١/ ١٢٦).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) (١/ ١٣٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) (١/ ١٣١).

(الحمد) هي الألف واللام التي تدخل على الأوصاف، وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق والشمول، بمعنى: أنَّ جميع المحامد مضافة ومنسوبة لله، ومستحقة له سبحانه، ومعنى الاستغراق هنا: استغراق جميع أنواع المحامد، بمعنى: كلُّ الحمد مضافٌ ومستحقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ.

وتدل أيضاً أنَّه موصوف بجميع صفات الكمال، والذي يوصف بجميع صفات الكمال لا بد أن يكون هو الرب المعبود، المستحقُّ للعبادة وحدَه لا شريك له؛ لأنَّ الذي فيه نقص بوجه من الوجوه، لا يصلح لأنْ يكون محموداً من كل وجه، وهذا الذي فيه نقص لا يصلح أن يكون ربّاً، كما أنَّه لا يصلح أن يكون إلٰهاً، أما الذي يستحق جميع المحامد فهو الذي يتصف بجميع صفات الكمال.

والحمد: هو وصفُ المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، ولا بد من تواطئ اللسان والقلب والحال، فاللسان يصفُ بالكمال مع المحبة القلبية، وأنْ لا يكون في الحال ما يخالف ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والحمد خبرٌ بمحاسن المحمود مقرون بمحبّته)(١).

وللحمد سببان:

الأول: حمدٌ على تفضله وإحسانه على المخلوق للنعم الظاهرة والباطنة.

والآخر: حمدٌ لله على ما اتصف به من صفات الكمال، وما استحقه من نعوت الجمال والجلال والعظمة، فهو المحمود على أفعاله وفي أوصافه.

إذاً؛ فالحمد يكون باللسان، مع المحبة والتعظيم، وأنْ لا يدل الحال على خلاف ذلك، أما الشّكر فهو بالقلب واللسان والجوارح، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، فعلى هذا لا فرق عندي بين الحمد والشكر، لكنَّ الشكر لا يكون إلا عن إنعام، أما الحمد فيكون عن إنعام وغيره؛ أي: في جميع أحوال العبد، وهو حمد على النعمة، وعلى الصفة اللازمة والمتعدية.

---

(١) منهاج السُّنَّة النّبوية (٥/ ٤٠٤).

ولننتبه أنَّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ جملة اسمية، فالحمد اسم، والجار والمجرور دال على خبر محذوف، والجملة الأسمية تدل على الاستمرار والدوام، فله الحمد في جميع الأوقات والأزمان والأمكنة.

ولهذا فإنَّ ربنا ذكر الظروف الزمانية والمكانية، فقد ذكر لظرف المكان: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي ظرف الزمان ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص].

فكلَّما قرأت سورة الفاتحة، وقرأت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، استذكر أنَّ الله له الحمد في كل حال، وأنَّ الحمد مُستَحَقٌّ لله، وعبارة: (لله): جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: (مستحق ثابت)، وفيه معنى إثبات كل كمال للرب الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعلاً ووصفاً واسماً، مع تنزيهه عن كل نقص وعيب فعلاً واسماً ووصفاً، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنَّ الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه)[(١)].

وقد صحّ عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلةً من الفراش فالتمستهُ فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(٢)]. واسم الجلالة: (الله) في:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٩).
(٢) صحيح مسلم (١١١٨).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو اسم يدل على الألوهية، المتضمنة للزوم صفات الإلٰهية جميعاً لربنا وخالقنا، مع نفي أضدادها عنه؛ لأنَّ الأسماء الحسنى تتضمن صفات الألوهية، وقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣﴾ فيه ثواب كبير، فقد صحّ في حديث أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لله تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**»(١)، فهي إذاً تملأ ميزان العبد حسناتٍ يوم القيامة، وهي سبب رضا الرب عن العبد كما صح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ، أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»(٢).

❁ ❁ ❁

(١) صحيح مسلم (٥٥٦).
(٢) صحيح مسلم (٧١٠٨).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

تضمنت هذه الآية العظيمة على اسمين عظيمين من أسماء الله تعالى، وأسماء الله تعالى كلها حسنى، وصفاته كلها عُلا، ولا يعتري اسماً من أسماء الله تعالى، ولا صفةً من صفاته أيُّ وجه من أوجه النقص، (تعالى الله عن ذلك)، والعلم بأسماء الله تعالى يورث العبد معرفة الله، والتقرب اليه، ومحبته، وخشيته، وخوفه، ورجائه، ومراقبته، وإخلاص العمل له، وهذا هو عين سعادة العبد في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا بيانٌ لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأنَّ له الأسماء الحسنى؛ أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنَّه كل اسم دالٌّ على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنَّها لو دلت على غير صفة؛ بل كانت علما محضا لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال؛ بل إمَّا صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها)(١).

وهذان الاسمان اشتملا على صفة من صفات ربنا عظيمة، ونعت من نعوت الجلال جميل، صفة تدعو إلى البشارة والسرور، وإلى التعلق بمن إليه تؤول الأمور، صفة لولاها لما دخل الجنَّة أنس ولا جن ولا نور، صفة حولها صفات ربنا تدور، وهي أملنا وملاذنا ورجائنا، ونصب أعيننا يوم البعث والنشور.

نعم، إنَّها صفة الرحمة، رحمة من قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٠٩).

[الأعراف: ١٥٦]، فلا نعدم الخير والفضل والعفو والغفران من ربٍّ وسعت رحمته كل شيء، وقد ذكر الحافظ ابن كثير قول الطبري بإسناده إلى العَرْزَميّ يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال: الرَّحْمَنُ: لجميع الخلق، والرَّحِيمُ، قال: بالمؤمنين، قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، فذكر الاستواء باسمه الرَّحمٰن، ليعمّ جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣﴾ [الْأَحزاب]، فخصّهم باسمه الرحمٰن، قالوا: فدلّ على أنَّ الرحمن أشدّ مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرّحيم خاصة بالمؤمنين، لكنْ جاء في الدعاء المأثور: (رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما) واسمه تعالى: الرحمٰن، خاص به، لم يسمّ به غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف]، ولـمّا تجهرم مسيلمة الكذّاب وتسمّى برحمٰن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشُهِر به، فلا يقال إلا: مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر وأهل المدر، وأهل البادية والأعراب...)(١).

وذكر صفة الرحمة لله تعالى بعد ذكر صفة الربوبية فيه مناسبة: وذلك أنَّه لما كانت صفة الربوبية لا تستجمع الصلاح من كل الوجوه إلا بالرحمة، أتبع قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، وحينما يوقن العبد أنَّ ربه موصوف بالرحمة، فإنَّه لا ييأس من رحمة الله، ولا يقنط من مغفرته وتوبته عليه، فيكون راجياً ثواب الله، طامعاً في رحمته، وخائفاً من عقابه، حذراً من عذابه، وهذا هو مبدأ الخوف والرجاء الذي ينبغي أن يعيش عليه العبد حتى يلقى ربه.

إذاً المؤمن المربوب لله ربِّ العالمين يعيش الحب لله، والرجاء من الله، والخوف من الله، ولا يصيبه اليأس ولا القنوط، وهذه العقيدة حينما تتقرر في

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) (١/ ١٢٦).

قلب العبد ويعقد عليها حسن ظنه بربه سيسير إلى الله كما أراد الله ورسوله ﷺ، وقد صحّ في الحديث عن جابرٍ رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بالله الظَّنَّ**»(١).

فربوبية الله مبنية على رحمته، وهذه الرحمة رحمة واسعة ذكرت بعد الربوبية، فكما أنَّ الربوبية وسعت كل شيء، فكذلك رحمته وسعت كل شيء، فوسعت الخلق جميعاً، إنسهم وجنّهم، وكل أحد يتقلب في رحمة الله، وتأمل ما ورد في سورة الفاتحة مع قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ومع قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمٰن]، مع الرحم الذي هو وعاء الجنين، وآيات في سورة تبارك، تدل على أنَّ طيران الطير برحمة الله، وأنَّ وجودنا أحياءً برحمة الله، كل ذلك ينتظم مع ما ورد في سورة الفاتحة.

وعند قراءتك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، تأمل قبل ذلك الأسماء: (الله)، (الرب)، ثم الرحمة من قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، تجد أنَّ هذه الأسماء تجمع المخلوقات جميعاً، وأنَّ هذه الأسماء هي أصل الأسماء التي ترجع إليها بقية الأسماء.

فالخلق جميعاً عبيدٌ لله بعبودية قهرية، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم]، والسعيد من بادر إلى الله بالعبادة الإرادية، والعبودية مأخوذة من اسمه العظيم: الله، والربوبية تجمع الخلق أجمعين، وهي مأخوذة من اسم: (الرب) في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

والرحمة العامة قد جمعت الخلق جميعاً لا ينفك أحد عن رحمة الله جلَّ وعلا، والرحمة مأخوذة من اسمه الرحمٰن، فإذا تأمّلت هذا فحينها ستدرك سر انتظام هذه الأسماء في سورة الفاتحة.

ثم تدرك أنَّ الله أمرهم بألوهيته، وأعانهم بربوبيته، وأثابهم وجزاهم بملكه وعدله، وهذا ينتظم لك مع قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، لذا

(١) صحيح مسلم (٢٨٧٧).

فإنَّ التأليه من العباد لله، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب وأصل بينه وبين عباده.

وتقديم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ على ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، فيه إشارة إلى أنَّ رحمة رب العالمين بعبده سابقة لغضبه عليهم، ومؤاخذته لهم بذنوبهم، ويؤيد هذا القول الحديث الصحيح الثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «**إِنَّ الله لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[1]

قال ابن القيم رحمه الله: (ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه، وأهّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره وذلك من رحمته به)[2].

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٢٢).

(٢) ذوق الصلاة عند ابن القيم، لعادل الزرقي (٦٤).

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

والملك للَّه، من يظفر بنيل غنًى يردده قسراً وتضمنْ نفسه الدّركا
لو كان لي أو لغيري قدر أُنمُلَةٍ فوقَ الترابِ، لكانَ الأمرُ مُشترَكا

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معهُ حكماً كمِلْكِهم في الدنيا. ثم قال: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ۝٣٨﴾ [النبأ]، وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقرأ أكثر القراء: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وقد صح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**يَقْبِضُ الله الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمٰوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**»[١].

فالملك يوم القيامة لله وحده، فلا ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولا ملك من ملوك الأرض، لا أحد يملك مع رب العباد مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٧٣﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر].

من هذا يتبين لماذا خصَّ الله يوم الدين بالملك، وذلك لأنَّ يوم القيامة تكون فيه الأملاك زائلة، والسلاطين هالكة، والأموال فانية، فيكون الملك خالصاً لله، متفرداً به، قائماً له دون غيره، وأنَّ الحكم والأمر والقهر والشفاعة لله وحده، فلما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قال بعدها ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، ليعلم أنَّ الخلق والأمر: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ

(١) صحيح البخاري (٤٨١٢)، صحيح مسلم (٧٢٢٧).

نَفۡسٌ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار]، والملك: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ [الفرقان]، والحكم: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام]، والتدبير: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس]، لله وحده، أولاً وآخراً.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾: يوم الجزاء والحساب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾ [النساء].

وفي هذه الآية المباركة عدَّة أمور:

١ ـ إثبات الملك والخلق والأمر والحكم والتدبير لله أولاً وآخراً، (وقد بيّناه)، ففي ذلك اليوم ينسلخ عن أهل الدنيا الملك الظاهر الذي خولوا عليه في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾ [الأنعام].

٢ ـ إثبات القِسم الأول من أقسام التوحيد، وهو توحيد الربوبية، خالصاً لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

٣ ـ إثبات اليوم الآخر، ووجوب الإيمان به، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران]. لذا ينبغي على الإنسان أن يستعد لذلك اليوم، ويقدِّم له من العمل ما يحب أن يلقى به ربه، فالعبد إذا لمْ يعمل في الدّنيا، ثمَّ قدِم الآْخرة فنظر إِلى ثواب العاملين، ندم على تفريطه في الدّنيا.

وقد روي عن الْحسن بن صالح: أنه كان يتمثَّلُ بهذين البيتين:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِداً ... نَدِمْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ

فَمَا لَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ شَيْءٌ سِوَى الَّذِي ... تَزَوَّدْتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ إِلَى الْحَشْرِ

٤ ـ إثبات البعث والحساب، فيجازي المحسن بما قدّم، والمسيء بما قدّم، ويقتص للعباد من بعضهم، فترد المظالم إلى أهلها، فيأخذ كل ذي حق حقه، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر]، فمن علم هذا، فإنَّه يستعد ليوم حسابه وجزائه، ويغتنم أنفاس عمره، فيكون لا وقت له للعداوات والضغائن، والحقد والكراهية وتوافه الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر].

والإنسان عند تكراره لذكر يوم الدين تتبدل حساباته، فالإنسان قد يتخلى عن بعض حقه في الدنيا، لا من باب أنَّه لا يريد الحق، أو لا يحبه، ولكن يدَّخره ليوم الدين، وهو عنده أوثق مما في يديه، معتقداً اعتقاداً جازماً بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص]، ثم اعلم أيها الموفق، أنَّ ربنا ﷻ مالك الدين والدنيا، وهذا جاء ضمناً، وهو مأخوذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، فالله مالك الدنيا والدين، وجاء التخصيص بعد التعميم لتهويل خطورة ذلك اليوم، فهو يوم يجعل الولدان شيباً، وهو يوم عبوس، وهو يوم عظيم: عظيم لطوله، وعظيم بمدته، وعظيم بالحوادث التي تقع فيه، وعظيم بالقدرة الإلهية التي تظهر للناس فيه.

ونختم بهذا الحديث العظيم، الثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ،**

يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُم مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِم الله، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ الله، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ، فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُم شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا الله، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ الله رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الله الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله، فَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِن النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ الله مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَن النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي الله مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ الله وَجْهَهُ عَن النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، رَأَى بَهْجَتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ، قَدِّمْنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ الله لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِن النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الله: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي

أَشْقى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ الله ﷻ **مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ الله** ﷻ: **مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ الله تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ**»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**قَالَ الله: لَكَ ذَلِكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ**»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ إِلَّا قَوْلَهُ: «**لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ**»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ**»[١].

---

(١) صحيح البخاري (٨٠٦)، صحيح مسلم (١٨٢).

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

قال الشيخ علي عبد الرحمٰن الفران: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: لأنَّك الصانع، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾: لأن المصنوع لا غنى به عن الصانع، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: لتدخلنا الجنان، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾: لتنقذنا من النيران، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: لأنّا عبيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾: لأنك كريم مجيد، ﴿إِيَّاكَ ٥﴾: لأنك المعبود بالحقيقة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾: لأنَّنا العباد بالوثيقة).

﴿إِيَّاكَ﴾: (إياك أقصد) و(إياك أسأل)، وكررت هنا للإخلاص والاختصاص والتأكيد.

والعبادة: غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو ربُّ العالمين. قال الثعلبي: (﴿نَعۡبُدُ﴾ أي: نوحِّد ونخلص ونطيع ونخضع، والعبادة رياضة النفس على حمل المشاق في الطاعة، وأصلها: الخضوع والانقياد والطاعة والذلة، يقال: طريق معبّد، إذا كان مذلَّلاً، موطوءاً بالأقدام)[(١)].

والعبادة لأجلها خلق الله الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات]، إذاً هي غاية خلق العالمين، وسبب وجود الثقلين، ومن أجلها أرسل الله الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء]، ومن أجلها قامت السمٰوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ [الأنبياء]، ومن أجلها خُلِقت الجنَّة والنَّار، ومن أجلها ضرب الصراط.

لذا؛ فإنَّه لما كانت العبادة هي الغاية التي خلق لأجلها الخلق، كان

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي) (١/ ١١٧).

أعداء الدين من شياطين الانس والجن وضعوا همهم ونصب أعينهم صدَّ الخلق عن هذه الغاية، إلى أي شيء غيرها، وهذا الصدّ إنَّما هو درجات، وهذا على حسب قوة الإيمان وضعفه عند العبد، فكلما قوي إيمان العبد بربه، وحسن توكله عليه، ضعف أمامه الشيطان، حتى إنَّ قرين رسول الله ﷺ قد أسلم، وبالمقابل كلما ضعف إيمان العبد، ووُكِّل إلى نفسه، قوي وازع الشيطان فيه، حتى ينعدم الإيمان، فينتقل بذلك من الإيمان إلى الكفر، حتى قال قائلهم والعياذ بالله:

ولقد كنت جندياً من جند إبليس فارتقى　　بي الحال حتى صار إبليس من جندي

لذلك حذرنا ربنا جلَّ في علاه من مزالق الشيطان ومكايده، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس].

الاستعانة: طلب المعونة من الله تعالى، على أمور الدنيا والآخرة.

وإنَّ طلب المعونة من الله وحده وصدق اللجوء إليه قد أمرت به شريعتنا الإسلامية، وهو نهج الأنبياء السابقين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف].

كما جاء الأمر بذلك في كثير من أحاديث رسول الله ﷺ، كما صحّ في حديث معاذ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، والله إِنِّي لَأُحِبُّكَ، والله إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

قال الإمام ابن القيم: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة:

---

(١) سنن أبي داود (١٥٢٢).

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾)[١].

فإذا نال العبد من ربه العون فقد نال الخير كله، في حياته الدنيا حال العبادة، وحال التقرب إلى ربه، وفي الحياة الآخرة عندما يجد ما قدَّمه إلى ربه أمامه، فيكون سبباً لمرضاة الله، والمآل إلى النعيم الدائم.

وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التَّوحيد، وهما: توحيدُ الرُّبوبيَّة، وتوحيد الإِلٰهيَّة، وتضمَّنت التعبد باسم (الرَّب)، واسم (الله)، فهو يُعبد بإِلوهيَّته، ويُستعان بربوبيَّته، ويهدي إِلى الصِّراط المستقيم برحمته، فكان أَوَّلَ السُّورة ذكر اسمَه الله)، و(الرَّب)، و(الرَّحْمٰن)، تَطابقاً لأَجل الطَّالِب من عبادته، وإِعانتهِ، وهدايتهِ، وهو المتفرِّد بإِعطاء ذلك كلِّه، لا يعين على عبادتهِ سِواه، ولا يهدي سِواه.

ولشيخ الإسلام كلمة عظيمة عند هذه الآية فقد قال: (فـ ﴿إِيَّاكَ﴾) الغاية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ الوسيلة، فلن تستطيع أن تعبد الله إلا بالله، فالبداية من الله والنهاية إلى الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون).

وذكروا أنَّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، كما ذكر ذلك ابن القيم ونقل عن شيخه ابن تيمية: (أنَّ ﴿إِيَّاكَ﴾ تدفع الرياء، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ تدفع الكبرياء)[٢].

ولما علم العبد أنه لا يستطيع القيام بعبادة الله تعالى إلا بمعونة الله تعالى وتمكينه، أتبعها بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾؛ أي: لا نطلب الأمر والعون إلا منك وحدك؛ لأنك القادر الوحيد على هذا، وفي هذا إشارة الى أنه لا ينبغي للعبد أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة وهو الله الخالق، وفي التعبير بنون الجماعة في (نعبد ونستعين) إشارة إلى إنَّه واحد من هذه الإمة المؤمنة التي تعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وقد تحول في هذه الآية إلى

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٠٠).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٧٨).

صيغة المخاطبة لأنّ العبد كلما عبد ربه جلَّ وعلا فإنه سوف يقترب بين يديه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ١٩﴾ [العلق].

في تقديم العبادة على الاستعانة إشارة إلى أنَّ العبد كلما عبد ربه جلَّ وعلا ووقف بين يديه يتضرع إليه كان ذلك أدعى إلى معونته له، فييسر له أموره، ويعينه على قضاء حوائجه، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»(١).

لذا كان هذان الأمران (عبادة الله حق العبادة، وطلب العون من الله على أمور دنياه وآخرته) أهم ما ينبغي على العبد أن يعتني بهما، وأن يستفرغ جهده لتحقيق الأولى، ويتضرع إلى ربه ليحقق له الثانية، ومن هذا ما وصى به نبيّنا ﷺ حبر الأمة عندما أراد أن يوصيه، وهو يتأمل به الخير، ويرى به العلم، فقد جاء في الحديث عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْماً، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ: إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(٢).

❀ ❀ ❀

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).
(٢) مسند أحمد (٢٦٩٦)، جامع الترمذي (٢٥١٦).

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

إنَّ الله تعالى يعلِّمنا حسن الأدب معه، فهو الذي خلقنا وهدانا، فأمرنا بالحمد والتمجيد له والثناء عليه، ومن حسن الأدب معه التقديم للطلب والسؤال بمقدمة، وهذا من أدب الدعاء، أن يبدأ العبد بحمد الله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله، ثم يأتي بحاجته، وهذا مثله من كتاب الله، ومثله من السُّنَّة وافر.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هو دين الله الذي لا اعوجاج فيه)، وقال غير واحد من الصحابة والعلماء: أنَّ الصراط المستقيم: هو الإسلام، والمستقيم؛ لأنَّه صواب لا خطأ فيه.

وجاء في الحديث، عن جابر رضي الله عنه، في وصف الصراط، قَالَ: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَخَطَّ خَطّاً هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ الله**»، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ، قَالَ: «**هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ**»، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام]»[(١)].

وهذا الدعاء فيه عدة معانٍ:

١ ـ أرشدنا إلى الطريق الحق، فلما كان الطريق الحق هو طريق ربنا، فلا هادي لنا غيره تعالى، قال تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ

(١) مسند أحمد (١٥٢٧٧).

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ [الكهف]، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: (قال جبريل لمحمد ﷺ: قل، يا محمد، اهدنا الصراط المستقيم)، يقول: ألهمنا الطريق الهادي.

٢ ـ نسألك أن تثبتنا حتّى لا ننحرف أو نزيغ لأَنَّ الإِنسان يكون اليوم مُهتدياً، وقد يكون غداً من الضَّالِّين، فيكون المعنى: ثَبِّتنا عَلى الصِّراط المُسْتَقِيم، قال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [الرعد]، وعلى هذا يبنى دعاء النبي ﷺ، كما روي في حديث أَبي سَلَمَةَ بْن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ عَوْفٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ الله ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**»(١).

٣ ـ تجديد الهداية، وذلك أنَّ العبد في هذه الحياة يتعرض إلى الفتن والشهوات والشبهات، فهو بحاجة دائمة إلى تجديد الهداية، ومن هذا ما جاء عن السيدة عَائِشَة رضي الله عنها، قَالَت: مَا رفع رَسُول الله ﷺ رَأسه إِلَى السَّمَاء إِلَّا قَالَ: «**يَا مصرف الْقُلُوب ثَبت قلبِي على طَاعَتك**»(٢).

وسؤال الله الهداية يربِّي المسلم على الطريق الصحيح، لتحقيق الهداية، **ولذلك لا بدّ من أمور:**

١ ـ معرفة مراد الله من عبده، فما من واقعةٍ في الكون إلا لله فيها حكم، فالعبد يتعرَّف على حقِّ الله، وواجب العبد تجاه أمر الله، لذا قيل عن الفقه: (معرفة النَّفس ما لها وما عليها)، والفقه هو ما قال عنه الزهري رحمه الله:

(١) صحيح مسلم (١٨٤٧).
(٢) مسند أحمد (٩٤٢٠)، السنن الكبرى للنسائي (١٠٠٦٣).

(ما عُبِد الله بمثل الفقه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [مريم]، عرَّفهم بالله، ثمَّ أمرهم بالعبادة، وبيَّن لهم الطريق الحق).

٢ ـ تطبيق مراد الله على ضوْء الفقْه في الدِّين، وعلى ضوْء تلك الرُّؤية.

وسِرّ الانحراف عن منهج الله يرْجع إِلى فقد هذين الأَمرين: العِلم والعمل، والوقوع في ضِدِّهما، **وهما**:

١ ـ الجهل: فالجهل رأْس كلّ داء، ومانع من سلوك الصِّراط المستقيم.

٢ ـ الهوى: وتجد كثيراً ممَّنَ ضلَّ لديه العلم لكنَّه اتَّبع هواه.

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف].

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنَّه قال:

هتف العلم بالعمل   فإن أجابه وإلا ارتحل

وقال بعض أهل العلم: إنَّ النصوص الواردة في فضل العلم، إنَّما يناله من عمل به، أمَّا من علم ولم يعمل فذا يكثر من حجج الله عليه لا غير.

وفي هذا الدعاء يشهد المصلي شِدَّةَ فاقته وضرُورته إِلى هذهِ المسأَلة، التَّي ليس هو إِلى شيءٍ أَشدَّ فاقةً وحاجة منه إِليها البتَّة، فإِنَّه محتاج إِليه في كلِّ نفس وطرفة عينٍ، وهذا المطلوب من الدُّعاء لا يتمُّ إِلا بالهداية إِلى الطَّريق الموصل إِليهِ سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التَّفصيل، وخلق القدرة على الفعل، وإِرادته، وتكوينه، وتوفيقهِ لإِيقاعه له على الوجه المَرضيِّ المحبوب للرَّبِّ سبحانه وتعالى، وحفظه عليه من مفسداتِهِ حال فعلهِ، وبعد فعلهِ. قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ

بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ [البقرة].

وقد أخذ الإمام ابن القيم من قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة] فوائد، منها: أنَّ الهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البين والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتَّب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤْثِراً به، راضياً به، راغباً فيه، وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمّنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتِّباعه ظاهراً وباطناً، ثم خَلْقُ القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا، وتثبيتنا عليه إلى الوفاة، ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنّا مهتدين فكيف نسأله الهداية؟، فإنَّ المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمرٌ يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كمُلت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والوئام.

وذكر الإمام ابن القيم فيما يتعلق بالهداية هداية أخرى، هي ضرورية، فقال: (وللهداية مرتبة أخرى، وهي آخر مراتبها، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنَّة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسَل به رسله، وأنزل كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنّته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قَدَم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على نصب جهنّم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدّ الركاب، ومنهم من

يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسَلَّم، ومنهم المكردس في النَّار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذَّة بالقذَّة، جزاءً وفاقاً، ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل]، ولينظر الشبهات والشهوات التي تَعوقُهُ عن سيره على هذه الصراط المستقيم، فإنَّها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت، فكذلك هي هناك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت]، فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر)[١].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٣٣).

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

بعد أن عرفنا ما هو الصراط، يعرِّفنا ربنا تعالى بأهل هذا الصراط، وهذا من تمام الفضل، فإنَّ العبد إذا عرف الطريق سار عليه، لكنْ قد يصيبه شيء من الكلل أو التعب أو الملل، فإذا عرف أهل الطريق، وعرف فضلهم، استأنس بهم، وفرح، وسار على طريق المحبين، والنفوس مجبولةٌ على حب التأسِّي بالغير.

﴿أَنۡعَمۡتَ﴾: من الإنعام، وهي إيصال النعمة للغير، والنعم كثيرة لكنَّ الهداية أعظم النعم لأنَّ كل النعم متوقفة عليها، ولزوم الصراط المستقيم هو الإنعام المطلق الكامل من كل وجه؛ لأنَّه يقود إلى نعمة الفوز في الدنيا والآخرة، قال الزمخشري: (وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام لأنَّ من أنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه)[١].

وفي التفصيل بعد الإجمال فائدة، وهي أنَّ النفس إذا جاء المجمل تترقب وتتشوق للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوقة إليه، وقد جاء تفسير قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء]، وفي ذلك إشارة وبشارة لعبده المؤمن، فيعلم بأنَّه ليس وحده وإنْ كان غريباً في زمن من الأزمان، أو مكان من الأماكن، فيعلم بأنَّ طريقه مليء بالصالحين وأنَّ هناك من قد سبقه إلى جنَّات النَّعيم، فتطمئن نفسه وينشرح صدره ويأنس بذلك.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (تفسير الزمخشري) (١/ ١٦).

ومن الحكمة أنَّ ربنا تعالى علق أمر الهداية إلى الصراط المستقيم بفضله ونعمته، فقال: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: لولا نعمة الله عليهم لما سلكوا الصراط المستقيم.

وبهذا نحتاج إلى البيان لأمور عدة وهي:

١ ـ المنعِم: وذلك حتى نشكره، ونتقرب إليه، ونحبه، ونعظمه، ونحسن له العبادة، ولا ننسى فضله طرفة عين، ونتذكر هذا الفضل وتلك النعمة في كل ركعة من صلاتنا، إذ لولا فضل الله علينا لما كنّا من المهتدين، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ [الصافات]، وقد صحَّ في حديث الْبَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ وَهْوَ يَقُولُ:

«واللَّه لَوْلَا اللَّه مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»[١]

٢ ـ النعمة: وذلك حتى نحافظ عليها، ونعرف قدرها، ولا نفرط فيها.

ونِعَم الله على العباد أكثر من أن تعد، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل]، لكن تبقى نعمة الإيمان، وهي أعظم نعمة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات]، فللَّه الحمد والمنَّة، وله الفضل والثناء العظيم.

٣ ـ المُنعَم عليهم: حتى نقتفي آثارهم، ونسير على سبيلهم، عسى أن نكون منهم.

وقد ذكر الله تعالى هؤلاء المنعم عليهم، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النساء].

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٢٠).

قال: ذلك الفضل من الله، وفيه تذكير على أنَّ الله هو الذي تفضل عليهم بهذه المنازل، لا أعمالهم، وليس عليهم غير اتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، وحسن التوكل على الله، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»(١).

٤ ـ الناكبون عن الصراط: كما عرفنا أهل الصراط الذين أنعم الله عليهم، ينبغي علينا أن نعرف الناكبون عن الصراط، للحذر من طرقهم التي سلكوها، فانحرفوا عن صراط الله القويم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام].

قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣]، قال الشيخ السعدي رحمه الله: (أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكنَّ العقائد الباطلة تُذهب بصيرة القلب: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل]، فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر)(٢).

وقد جاء في هذا المعنى عن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رضي الله عنه، يَقُولُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»(٣)، وقد بيّنّا قريباً في أنّ طريق الهداية لا بد لسلوكه من أمرين، وهما العلم والعمل بالعلم.

وعلى هذا الأساس فإنَّ من شذّ عن الصراط قسمان:

فالقسم الأول: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: وهم من غضب الله تعالى عليهم

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٣)، صحيح مسلم (٧٢٩٥).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٦٠٥).
(٣) صحيح البخاري (٣٦٠٦)، صحيح مسلم (٤٨٩٠).

لكفرهم وإفسادهم في الأرض؛ كاليهود، وبدأ بهم لأنَّهم علموا ولم يعملوا بما علموا من الحق، فكان علمهم الذي علموه سبباً في خذلانهم، وزيغهم عن الحق، فمثل هؤلاء اليهود الذين علموا الحق وكفروه، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران].

والقسم الثاني: ﴿ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾: من أخطأوا طريق الحق، فعبدوا الله بما لم يشرعه، ومن أمثل من كانت هذه صفتهم: النصارى، وقد وصفهم القران بالضَّلال، كما قَالَ تعالى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [الْمَائِدَةِ]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ [المائدة]، والعجب من هؤلاء ومن على شاكلتهم أنَّهم يتعالون على النَّاس ويستكبرون؛ لأنَّهم أوتوا نصيباً من العلم، ولم ينتبهوا على أنفسهم إلا بعد فوات الأوان، لكي يعلموا أنَّ سبب خسرانهم هو علمهم الذي لم يعملوا به، ولم يؤدوا حقه، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف]، لذا حريٌّ بالمؤمن الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه أن يسعى ويبذل الجهد لتعلم ما أمر الله تعالى به، وأن لا يقف على هذا القدر فحسب؛ بل أن يحرص على تطبيق كلّ علم تعلّمه وأنْ لا يفرط بشيء من ذلك ولو لمثقال ذرة.

التأمين بعد الفاتحة: ولما كانت سورة الفاتحة تشتمل على هذه الأدعية العظيمة التي اشتملت على خيري الدنيا والآخرة فإنَّه يستحب لمن قرأها أن يقول بعدها: آمين، ومعناه: اللَّهُمَّ استجب، والدليل على ذلك: ما روي عن وائل بن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فقال: «آمين»، وعند أبي داود: رفع بها صوته[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**آمِينَ**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ**»[٣].

ومن أجل ذلك فقد كانت المساجد على عهد الصحابة رضوان الله عنهم والتابعين ترجّ من أصوات التأمين فيها بعد تلاوة الفاتحة، قال ابن القيم رحمه الله: (وشرع التأمين عند هذا الدعاء تفاؤلاً بإجابته وحصوله، وطابعاً عليه، وتحقيقاً له)[٤].

وإنَّ أحوج ما يحتاج إليه العبد المؤمن هو أن يغفر الله تعالى له ذنوبه، وقد وعدنا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم بهذه المغفرة لمن أمَّن مع الإمام بعد انتهاءه من سورة الفاتحة فوافق تأمينه تأمين الملائكة، ومن علامات إيمان العبد وخوفه من ربه عدم تفريطه فيما يكون سبباً في مغفرة خطاياه وذنوبه.

❀ ❀ ❀

---

(١) مسند أحمد (١٨٨٤٢)، سنن أبي داود (٩٣٢)، جامع الترمذي (٢٤٨)، صحيح ابن حبان (١٨٠٥).

(٢) صحيح البخاري (٧٨٠)، صحيح مسلم (٩٤٢).

(٣) صحيح ابن حبان (٨٥٦).

(٤) ذوق الصلاة عند ابن القيم، لعادل الزرقي (٣٠).

الركوع وأذكاره

إنَّ العبد إذا وقف بين يدي الله تعالى فإنَّه مأمور بأن يتبع ما أمره الله تعالى به، وأن يكون قلبه مطمئناً لذلك، موقناً بأنَّ له به خير مصلحة عظيمة، وقد شرع الله تعالى للعبد إذا أتمَّ قراءة الفاتحة وقرأ بعدها شيئاً من كتاب الله ﷻ وأراد أنْ ينتقل إلى الركوع أنْ يرفع يديه، تعظيماً لأمر الله، وزينة للصلاة، واتباعاً لسُنَّة المصطفى ﷺ، وفي هذا الأمر عبودية خاصة لليدين كعبودية باقي الجوارح.

ثم شرع له تكبيرة الانتقال من ركن إلى ركن، وقد اختير التكبير من بين جميع الأذكار لأنَّ مدار الصلاة حول تعظيم الله تعالى حق عظمته، وتأكيداً منه أنَّه ليس في قلبه شيء أعظم من الله تعالى، ثم أمر العبد أن يركع لله تعالى خضوعاً لعظمته، واستكانةً لهيبته، وفي هذا الركن من المعاني العظيمة ما لا يعلمها إلا الله تعالى، فحين يقول العبد: سبحان ربي العظيم ـ وهذا تعظيم باللسان ـ وهو في ذلك الحين حانياً لظهره مطأطئاً لرأسه، موقناً بقلبه أنَّ الله تعالى هو العظيم المستحق للعبودية، فإنَّه قد اجتمع له في ذلك خضوع القلب وخضوع الجوارح، ومن آثار الركوع أنَّه يزيل الكبر والتعالي من قلب العبد، فيكون الكبرياء والعلياء لله تعالى وحده لا شريك له، فكلما استولى على قلب العبد تعظيم الله تعالى خرج منه تعظيم النفس والخلق، وحينئذ تتبع الجوارح القلب في هذا الأمر.

وكلما اكثر العبد من الركوع والسجود كان ذلك ادعى لتوفيقه وفلاحه، كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج].

ومن تمعّن في الصلاة وأفعالها فإنَّه سيجدها لا تنفك عن ذكر الله

تعالى، فكل ركن من أركانها وفعل من أفعالها قد اختص بذكر من الأذكار، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه].

قال أبو السعود في تفسيره: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا﴾: خُصت الصلاةُ بالذكر، وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفضلها، وإنافتِها على سائر العبادات، بما نيطت به من ذكر المعبودِ، وشُغل القلبِ واللسانِ بذكره، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: لتذكرني، فإنَّ ذِكْري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادةِ والصلاة، أو لتذكُرني فيها، لاشتمالها على الأذكار، أو: لذكري خاصةً، لا تشوبُه بذكر غيري، أو: لإخلاص ذكري، وابتغاءِ وجهي، لا تُرائي بها، ولا تقصِدُ بها غرضاً آخرَ، أو: لتكون ذاكراً لي غيرَ ناسٍ، وقيل: لذكري إياها، وأمْري بها في الكتب، أو: لأنْ أذكُرَك بالمدح والثناء، وقيل: لأوقات ذكري، وهي مواقيتُ الصلاة، أو: لذِكْر صلاتي، لما روي أنَّه ﷺ قال: «**من نام عن صلاة أو نسِيَها فليصلِّها إذا ذكرها**»(١)؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾، وقرئ: لذكرى، بألف التأنيثِ، وللذكرى معروفاً، وللذكْر بالتعريف والتنكير)(٢).

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بعبادته وحده لا شريك له، وأمرنا أن نسبّحه، ومعنى ذلك تنزيهه عن كل عيب ونقص ينسبه إليه المخالفون لصراطه المستقيم، ومع ذلك فإنَّ الله تعالى قد سبّح نفسه حيث قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحشر]، ولما سبَّح الله تعالى نفسه منزهاً ذاته العلية عن النقائص، في غير موضع من كتاب الله، وقد جعل الله تعالى التسبيح شعار الملائكة، فهم كما قال ربنا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء]، قال كعب الأحبار: (التَّسبيح لَهم كالنَّفس لبني آدم)(٣).

(١) صحيح البخاري (٥٩٧)، صحيح مسلم (١٥٩٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٨).
(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٢٩١).

وقد جعل الله تعالى التسبيح ذكراً لكل ما خلق الله تعالى، فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور].

فلما كان التسبيح شعار العبودية لله تعالى، جعل الله برحمته نصيباً من هذا الفضل الكبير لعباده الصالحين، وهم يسبّحون ربهم في صلواتهم، مشابهين بذلك حملة العرش والملائكة المقربين، ووعدهم الله بذلك حسن الجزاء، مع الزيادة من فضله، والرزق الوفير، فكان التسبيح هو الذكر في الركوع والسجود.

قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أضواء البيان»: (وَوَصفُهُ تعالى لهؤلاء الرجال الذين يسبِّحون له بالغدو والآصال، بكونهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على سبيل مدحهم، والثناء عليهم، يدلّ على أنَّ تلك الصفات لا ينبغي التساهل فيها بحال لأنَّ ثناء الله على المُتّصف بها يدل على أنَّ من أخلَّ بها يستحق الذمّ الذي هو ضد الثناء، ويوضِّح ذلك أنَّ الله نهى عن الإخلال بها نهياً جازماً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات)(١).

والتسبيح سبب للنجاة، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسيره: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٥٣٩).

مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات]؛ أي: في وقته السابق، بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده، وفي بطن الحوت، حيث قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات]؛ أي: لكانت مقبرته، ولكنْ بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجَّاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين، عند وقوعهم في الشدائد)[١].

وقد شرع الله لنا تسبيحه في الركوع، وقد ثبت هذا في أحاديث صحيحة، كما ثبت عن ابْن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ الله ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعاً أَوْ سَاجِداً، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عز وجل، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[٢].

وعَنْ حُذَيْفَةَ بنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله يَقُولُ إِذَا رَكَعَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»[٣]، والواجب من ذلك في الركوع: التسبيح مرة واحدة.

والتسبيح: تنزيه الله، وتقديسه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، فالتسبيح: تمجيد لله بالبراءة من الصفات التي لا تليق به.

وأصل السبح في اللغة: الحركة السهلة التي يحصل بها الانتقال في الماء والهواء برفق ولين، والمصلي يجد الراحة والطمأنينة بسبح روحه بذكر الله تعالى ومحبته والعيش مع جماله وجلاله، فالتسبيحُ إذاً: كلمةٌ رضيها الله لنفسه فأوصى بها، ويكون الذكر المطلوب متضمناً معنى سبح النفس والقلب والفكر في إبعاد غير مُدركة النهاية من عظيم صفات الله وأسمائه الحسنى، لكن سبح

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٠٧).
(٢) صحيح مسلم (١١٠٢).
(٣) سنن ابن ماجه (٨٨٨)، سنن أبي داود (٨٧١)، جامع الترمذي (٢٦٢)، سنن ابن ماجه (١٠٠٧).

النفس والروح والقلب يكون مع ذكر الله وتسبيحه إذا صرف الشواغل عن قلبه، وأقبل إلى ربه بقلبه وقالبه، فإذا فعلَ، كانُ التسبيحُ جوهرَ العبادة والتطبيق العملي لما في القرآن العظيم، فالعبد هنا ينزه الله تعالى عن جميع النقائص بصفة الربوبية، ثم يعظِّم الله في ذاته وصفاته، فإنَّه ﷻ في ذاته أعظم من كل شيء؛ أي: أنَّ العبد بهذا الذكر ينزه الله ﷻ، ويصفه بعد تنزيهه بأمرين كماليين: وهما الربوبية والعظمة، فيجتمع من هذا الذكر التنزيه والتعظيم، والتنزيه والتعظيم باللسان تعظيم قولي، وبالركوع تعظيم فعلي، فيكون الراكع جامعاً بين التعظيمين: القولي والفعلي.

وجاءت السُّنَّة النّبوية بأذكار أخرى وأدعية للركوع مشروعة عند الركوع:

١ ـ (سبحانك اللَّهُمَّ ربنا وبحمدك، اللَّهُمَّ اغفر لي): عن عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»(١)

ومعنى: (يتأول القرآن)؛ أي: يعمل بما أُمر به في قول الله ﷿: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر].

٢ ـ (سبوح قدوس، رب الملائكة والروح).

والسبوح القدوس هو الله، المنزه عن كل نقص وسوء، وهو الذي يسبحه كل شيء، والقدوس هو الطاهر المبارك الذي يقدسه ويعظمه كل شيء.

والتسبيح دواء نافع للأرواح والنفوس والأعصاب؛ لأنَّه يمنح الهدوء والسكينة والطمأنينة والراحة، وحينما يسبح المؤمن متدبراً عظمة ربه القدوس يفرغ الشحنات الضاغطة عن فكره ونفسه وقلبه وروحه، وبتفريغها يزداد نشاطه، وتعمل قواه الكامنة طاقتها، لذلك فإنَّ الله تعالى قد أوصى نبيّه بأن يتعبد الله بالتسبيح، علاجاً لما يصيبه من ضيق الصدر والهم والحزن، وهذه الوصية تكررت في كتاب الله مراراً، وتأمل في سورة: (ق) التي اهتمت بشأن إصلاح القلوب، ودفع اعتلالها، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ

(١) صحيح البخاري (٨١٧)، صحيح مسلم (١١١٣).

بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ [ق]، فأرشده ربُّه ومولاه إلى التسبيح، علاجاً يصرف عن النفس ما يؤلمها أو يزعجها في أوقات موزعة، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور].

ومن أكْثَرَ من الركوع والسجود في صلاته، ازداد تعظيمه لربه، ولذلك تعبدنا الله بالمواظبة على أفعالٍ هي مقتضى تعظيم القلب، من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب.

والركوع خضوع، وذلك لله بالقلب والقالب، وثمرته من الله الإحسان والإنعام، والقرب من الرب، ولأهمية الركوع فقد قال الفقهاء: (أربعٌ لغير الله شرك: الركوع، والسجود، والذبح، والنذر)، وليحذر المصلي أن يقصّر في أي حق من حقوق الصلاة، فَعَن أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَسْوَأ النَّاس سَرِقَة الَّذِي يسرق من صلَاته**»، قَالُوا: يَا رَسُول الله، كَيفَ يسرق من صلَاته؟ «**قَالَ: لَا يتم ركوعها وَلَا سجودها**»[(١)]. لذا كان سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: (الصلاة مكيال، فمن وفّى وُفّي له، ومن طفف فقد علمتم ما أنزل الله في المطففين)[(٢)].

٣ ـ (اللَّهُمَّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، أنت ربي، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي، وما استقلت به قدمي، لله ربِّ العالمين): وقد ثبت هذا الذكر في الحديث الصحيح عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)].

(١) مسند أحمد (٢٢٦٤٢).
(٢) الاستذكار، لابن عبد البر (١/ ٢٩٧).
(٣) صحيح مسلم (١٨٤٨).

إشارةً إلى أنَّ خشوعه في ركوعه قد حصلَ بجميع جوارحِهِ، ومن أعظمها القلبُ، الذي هو مَلِكُ الأعضاءِ والجوارح، فإذا خشعَ خشعتِ الجوارحُ، والأعضاءُ كلُّها تبعاً لخشوعِهِ. والمسلم يحسن ظنَّه بربه أنَّ الله يعطيه من الأجر على عدد تلكم المذكورات في الدعاء، وهي كثيرة لا يحصيها إلا الله، ولكنَّ الله تعالى يعدها عداً

٤ ـ (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة): عن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: قمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً، فَلَمَّا رَكَعَ، مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، يَقُولُ في رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»[1]، ولا يخفى على ذي لبّ ما يحتويه هذا الدعاء من التذلل لله ربِّ العالمين، حيث يذكر العبد ربه بصفات العظمة والجلال، فينزهه عن كلّ نقص وعيب ينسبه إليه، وهو في حالة الخضوع لربه جلَّ في علاه.

❁ ❁ ❁

(١) سنن أبي داود (٨٧٣)، سنن النسائي (١٠٤٨).

الرفع من الركوع

بعد أن يقضي المصلي ركوعه، ويأتي بما فيه من الأذكار، فإنَّه يرفع رأسه قائلاً: (سمع الله لمن حمده)، فتتحد الحركة العملية مع العبادة اللسانية مع مواطأة القلب اللسانَ، ومعنى سمع الله لمن حمده: استجاب الله لمن حمده، فيحمد العبد به ويثني عليه منتصب القامة معتدلاً، فيحمد ربه جلّ في علاه أنْ أعاده إلى أكمل هيئة وأحسنها، وأتمَّ عليه نعمة تعظيمه عبادته، فإنَّ غيره الكثير من الخلق محرومون من هذه النعم العظيمة، فكان وقوفه شبيهاً بوقوف تلاوة الفاتحة، فيثني عليه كما أثنى عليه في سورة الفاتحة، فإنَّ المصلي حمد ربه بسورة الفاتحة، قائلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، ثم أثنى على ربه قائلاً: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم مجّد ربه قائلاً: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، ثم توسل بالتوحيد وإخلاص العبودية بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ثم سأل ربه سؤال الخشية والرغبة والرهبة سلوك الاستقامة، وشفع ذلك بالخضوع والذل للكبير المتعال؛ فتفاءل باستجابة الله له، قائلاً: «**سمع الله لمن حمده**»، وهذا نحو: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**».

وهذا الذكر الوارد في الركوع، ثابت عن النّبي ﷺ في السُّنَّة الصحيحة، كما صحّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**إِنَّمَا جعل الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِساً فَصَلُّوا جُلُوساً أَجْمَعُونَ**»[١].

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٢)، صحيح مسلم (٩٥٧).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١).

ومعنى سمع الله لمن حمده؛ أي: استجاب الله لحامده، كما استعاذ من دعاءٍ لا يسمع؛ أي: لا يستجاب، فكذلك يشرع عقب ذلك الاجتماع على حمد الله من الإمام ومن خلفه.

وظاهر هذا الحديث: يدل على أنَّ الملائكة تحمد مع المصلين، فلهذا علّل أمرهم بالتحميد، بقوله: «**من وافق قوله قول الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، وحري بالمؤمن الذي يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه أن لا يفوّت على نفسه فرصة من فرص مغفرة الذنوب والخطايا.

وعَنِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ ظَهْرَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمٰوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»(٢)، وفي هذا الذكر المبارك فضل عظيم، وذلك لما تضمّنه من الإكثار من الحمد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «**رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»(٣).

قال الشيخ عطية محمد سالم: (هذا الإعجاز النبوي، بهذا الأسلوب العظيم، نجد بعض العلماء يقول فيه: إنَّ الدعاء والصلاة على الرسول ﷺ والتسبيح بمثل هذه العمومات لا يصلح، لأنك بكلمة واحدة تريد أن تملأ السماوات والأرض؟ (الحمد لله ملء السمٰوات والأرض)، وإذا ورد النص في

---

(١) صحيح البخاري (٧٩٦)، صحيح مسلم (٩٤٠).
(٢) صحيح مسلم (١٠٩٥).
(٣) صحيح مسلم (١٠٩٩).

هذا لم يبق لأحد مقال، والباب هو باب فضل الله ﷻ، وقد جاء في الحديث الآخر عند مسلم: «**الحمد لله تملأ الميزان**»، هذه كلمة واحدة ملأت الميزان، وجاء في وصف الميزان: «**لو أنَّ السمٰوات السبع في كفة، ولا إلٰه إلا الله في كفة، لمالت بهن لا إلٰه إلا الله**».

إذاً: لا نستطيع أن نحكم بالعقل ما دام قد ثبت هذا بالنص.

«**والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والحمد لله وسبحان الله تملآن ما بين السماء والأرض**»، «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»، **إذاً: ما دام النص ثابت فلا كلام لأحد، وهنا في الحديث**: «**ملء السموات وملء الأرض**»، تصور بإدراك العقل أنَّ هذا الحمد ملأ السماوات والأرض، ثم قال: «**وملء ما شئت من شيء بعد**»، وهنا يتساءل العقل ـ عند قول: «**ما شئت من شيء بعد**» ماذا بعد السماوات والأرض؟! هل يمكن لنا أن نتساءل هذا التساؤل ونحاول أن نصل إلى جواب، أم نترك ذلك إلى علم الله ﷻ؟، وما دام أن النص يقول: «**وملء ما شئت من شيء بعد**»، فلا مانع، وأوسع من هذا كله قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، إذاً: يوجد شيء آخر غير السمٰوات وغير الأرض وهي الجنة، إذاً: عالم الملكوت لا يمكن لعقل أن يحيط به، وهذا الذي جاءتنا به النصوص.

المهم: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يوسع مجال الذكر إلى هذا الحد، فهل فكرت في هذا حينما ترفع من الركوع، وتقول: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ملء السمٰوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد**»؟ هل تتذكر هذا المعنى؟ وليس مجرد السعة فقط، ولكن نتذكر عظمة هذا الكون وبالتالي عظمة الخالق.

وقوله: «**أهل الثناء**»؛ أي: يا رب أنت أهل للثناء، هناك الحمد وهنا الثناء؛ لأنَّ «**ملء السموات**» فيه بيان القدرة لخلق السمٰوات، والخالق بديع السمٰوات والأرض، وقد تثني على مهندس صمّم هذا المسجد، أو على طبيب ناجح، وبديع السمٰوات والأرض أحق بالثناء، سبحانه ﷻ، فتجمع الحمد

أولاً لكمال ذاته، وتأتي بالثناء ثانياً لملء السمٰوات والأرض وما شئت من شيء بعد، وأنت تعلم بذلك، فيكون اجتمع منك لله الحمد والثناء.

وقوله: «**أهل الثناء والمجد**»، المجد: العزة، والسلطان، والقدرة.

وقوله: «**أحق ما قال العبد**»: هذه الألفاظ أحق ما يقولها العبد لمعبوده، وهو أن يحمده بهذا الحمد المتسع، وبكل ما يمكن أو هو كائن في الوجود، والثناء على الله بما هو أهله من حسن الفعال والقدرة والإيجاد والإبداع... إلخ.

فإذا كان الله خلق السماوات ودبّر أمرها، وسيّر أفعاله وما فيها من ملائكة وكواكب، ليس فقط مجرد سماء وبنيت وأديرت، وكذلك الأرض وما فيها من عوالم، فحقَّ الثناء لله، وأحقّ ما قاله العبد لربه مقابل هذا الملك بكامله.

وقوله: «**وكلنا لك عبد** »، أحق ما قال العباد ـ وأنا منهم ـ: «**وكلنا لك عبد**»، وبهذا في هذه الحركة أعتقد أنه لا يتأتى لإنسان أن يقول: الله أكبر، ثم ينزل إلى السجود ويفوت على نفسه الخير الكثير، وهذا يبين خطأ من يقول: أركان الصلاة ركن طويل وركن قصير، أو ركن ثقيل وركن خفيف؛ بل كلها أركان مستوية، وأنَّ الإنسان يطمئن في كل أركان الصلاة.

وقوله: «**اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت**»: عطاء المولى ﷻ عظيم، وإذا أراد الله ﷻ لإنسان عطاءً فلا راد له، وقد جاء هنا عطاء مطلق: «**لا مانع لما أعطيت**»، سواء كان العطاء ماديّاً محسوساً، من غنى وصحة وولد ومنصب... إلخ، أو كان عطاءً معنويّاً من مكارم أخلاق وتوفيق للعبادة وعلم نافع... إلخ.

فلا مانع يا رب لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، فالعطاء من الله، ولا موجود في هذا الوجود يمنع عطاء الله عمن أراد له خيراً، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أنّ النَّبيَّ ﷺ، قال له: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ**

يضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[(١)]! وهذا يجعل العبد يتوكل على ربه حق التوكّل، فلا يتعلق بشيء من مخلوقاته ولا يعتمد عليه ما دام معتمداً على ربٍّ لا يخذل من اعتمد وتوكل عليه.

إذاً: في هذا الجزء من هذا الحديث، وأنت قد توجهت إلى الله ﷻ، وحمدته ملء السمٰوات والأرض، وأثنيت عليه سبحانه، تقف مقرّاً، بين الرجاء والخوف، ولا تتوجه في حاجة أيّاً كانت إلا له سبحانه، إذ لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ**»[(٢)]؛ يعني: الذكاء والغباوة، الفطنة والجهالة، كلها بعطاء من الله وبقدر منه.

والقرآن الكريم فيه توبيخ لعبّاد الأصنام، وبيان لباطلهم، فقال تعالى: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء]، لماذا تعبدونهم؟ هل لديهم منفعة ترجونها؟ هل تخافون من ضر يوقعونه بكم؟ هم لا يملكون نفعاً يجلبونه إليكم، ولا يقدرون على ضر يوقعونه بكم، فما هو موجب العبادة؟ وتقدم مراراً الإشارة إلى قول العلماء: كل عاقل في هذه الدنيا إنَّما يسعى لأحد أمرين: إما لجلب نفع، وإما لدفع ضر، قال الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما ... يرجى الفتى كيما يضر وينفع[(٣)]

مع ملاحظة اختلاف الجهة وانفكاكها، إذا أنت لم تنفع صديقك تضر عدوك؛ يعني لا بد أن تفعل شيئاً، فإذا كنت لا تستطيع نفعاً ولا ضرّاً، ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [النحل: ٧٦]، فما قيمة هذا؟ وفي هذا الموقف بين يدي الله الاعتراف بأنه: لا مانع لما أعطيت قليلاً كان أو كثيراً، ولا معطي لما منعت قليلاً كان أو كثيراً، إذاً: وأنت بين يدي الله في الصلاة، تزداد رغبة وإيماناً ويقيناً بأنَّ العطاء من الله، ولا يدفع الشر

(١) جامع الترمذي (٢٥١٦).
(٢) صحيح مسلم (٦٩٢٢).
(٣) هذا البيت للنابغة الجعدي في ملحق ديوانه (٢٤٦).

إلا الله، وهذه أيضاً وقفة جديدة مع الوقفة الأولى: «**ربنا ولك الحمد، حمداً طيباً طاهراً مباركاً فيه، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد**».

ثم يعقب ذلك بما يشبه التذييل والتكملة، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، ولا ينفع ذا الجد، والجَد بمعنى الحظ، تقول لإنسان: فلان محظوظ، ومن أين جاء له الحظ؟ صاحب الحظ مهما قلت فيه فإنَّ حظه لن يأتيه بشيء إلا من عند الله، وبالكسر: (الجِد) بمعنى: الاجتهاد، والمعنى الآخر (للجَد): الذي هو أبو الأب، لا دخل له في هذا.

«**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»؛ يعني: ذا الحظ والذكاء والفطنة، فإنَّ عقله وفطنته وحظه لا تنفعه بشيء.

وَلَوْ كانَتِ الأرزَاقُ تَجْري على الحِجَا هلكْنَ إذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهَائِمُ[(١)]

والغنى والفقر ليسا بالذكاء أو بالحظ، والآن يوجد جهاز بحجم الكف يحسب قدر مائة شخص، ومائتا ألف كلمة تترجم في جهاز مثل الكف من الإنجليزي إلى العربي، ومن العربي إلى الإنجليزي، ويُخزِّن أرقاماً أكثر من مائتي رقم هاتف، وآلة حاسبة، وكلها قدر الكف، أين ذهبت عقولنا؟ مائتا ألف كلمة تترجم من الإنجليزي إلى العربي ومن العربي إلى الإنجليزي، وأكبر شخص مترجم الآن لا يحفظ مائتي ألف كلمة.

إذاً: العقل كآلة إذا كان أوتي شيئاً من الذكاء فمن الله، هذا الذي ركب أو اخترع هذا الجهاز من أين؟ من العقل، والعقل مَنْ خلقه ووهبه وأعطاه هذا إلى أن توصل إلى ذلك؟ الله، إذاً: الكل راجع إلى الله.

قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، والعلم من أعطاك إياه؟ وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]، من الذي علمك بعد أن خرجت من بطن أمك؟! إذاً: العاقل يتأمل حقيقة وجوده، وحقيقة وجود الكون من حوله، وهذه لفتات أو

(١) هذا البيت لأبي تمام، في ديوانه (١/ ١٨٢).

لمسات تأتي من الرسول ﷺ في ساعة توجه الإنسان بكليته إلى الله، واستعداد استقبال هذا التوجيه أكثر مما لو جاءه وهو ماش في السوق، أو ذاهب إلى البيت، أو نائم في غرفته، أو جالس يأكل ويشرب، لكن يصلي ويناجي ربه، فيعلمه حقيقة علاقته بالله: يا رب! أنا جئت إليك، وأقررت أنك ربّ العالمين، تصرفهم كيفما شئت، وأنا فرد من أفراد تلك العوالم كلها، وأقررت بأنك مالك يوم الدين، وأنَّ مآله إليك، ثم رجوت وسألت بذلة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، اعتراف، ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٦]، فيبين حقيقة علاقة الإنسان بالله في هذا الحديث.

ولهذا نقرأ: «**الدعاء مخ العبادة**»، لأنك لو تأملت في ألفاظ الدعاء الوارد عن النبي ﷺ لوجدت العمق والبعد إلى حد بعيد جدّاً، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

❀ ❀ ❀

السجود وأذكاره، والرفع من السجود

يا من إليه جميع الخلق يبتهل | وكل حيّ على رحماه يتكل
يا من نأى فرأى ما في القلوب وما | تحت الثرى وحجاب الليل منسدل
أنت المنادى به في كل حادثة | وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل
أنت الغياث لمن سُدَّت مذاهبه | أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إنا قصدناك والآمال واقعة | عليك، والكل ملهوف ومبتهل
فإن غفرت فعن طَوْل وعن كرم | وإن منعت، فأنت الحاكم العدل

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ الله ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَة، يَرَاهَا الْمُسْلِم، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعاً أَوْ سَاجِداً، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[(١)].

في ترتيب أفعال الصلاة وأذكارها إعجاز، فيه ينذهل قلب المتفكر، فالمصلي بعد أن يكبر ويستفتح يشرع في قراءة سورة الفاتحة، ثم يركع معظماً لربه، ومنزهاً له، وخاضعاً لعبوديته، ثم يرفع حامداً لربه، وبعد التعظيم والتنزيه والحمد شرع له القرب من ربه، وليس هناك فعل يقرِّب العبد من ربه مثل السجود، وعند هذا القرب شرع له أن يتقدم إلى ربه بسؤال حاجته من ربٍّ كريم جواد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سؤال يطلبه العبد في حالة من الخشوع والتذلل والقرب ممن خزائنه ملأى، ويداه

(١) صحيح مسلم (١١٠٢).

مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وكلتا يديه يمين، وممن كل يوم هو في شأن، وممن إذا لم يسأل غضب، وممن لو أنَّ الجنَّ والإنس قاموا على صعيد واحد، فسألوه، فأعطى كل واحد منهم مسألته، لم ينقص مما عنده، إلا كمثل المخيط إذا أدخل البحر.

والسجود في اللغة: تمام الطاعة والخضوع، ويتماثل فيه المعنى الحقيقي مع المعنى اللغوي، إذاً إنَّ الساجد لله تعالى مطيعٌ له وخاضعٌ تمام الخضوع، ويتحقق ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج]، فهذا لسان حال تلك المخلوقات فكل شيء قد خضع لعظمته وذل لكبريائه، ويتحقق بذلك سجود القلب، إذ إنَّ العبد قد فرغ قلبه من الفانيات، وأقبل على فاطر الأرض والسمٰوات، وأما في سجود الجوارح فالواجب على العبد أن يعطي كل عضو من أعضائه حظه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي الله تعالى، راغماً له أنفه، ويضع أشرف ما فيه وهو الوجه على الارض، معفّراً أنفه بالتراب، ومع ذلك سكون جميع جوارحه، فعلى العبد أن يرفع فخذيه عن ساقيه، ويبعد بطنه عن فخذيه، وعضديه عن جنبيه، ليأخذ كل عضو من أعضائه حظه من الخضوع، فلا يكون الإنسان عبداً لله تعالى إلا بهذا التذلل وبهذه العبودية، ومن هنا يظهر لنا سرّ كون السجود مقرباً للعبد من الله تعالى، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق]، وكما في قول النّبي ﷺ، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١) فكان بذلك هو موضع طلب الحاجة والدعاء لله تعالى، ولأهمية السجود فقد جعله الله تعالى واحداً من العلامات التي تميز عباده المخلصين، كما في قول الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

(١) صحيح مسلم (١١١١).

وكما إنَّه علامة لهم في حياتهم الدنيا فهو لهم علامة يوم القيامة، فمن كان يسجد خالصاً لله في الحياة الدنيا فإنَّ الله تعالى يعينهم على السجود بين يديه يوم القيامة، كما في الحديث الطويل الذي رواه الإمام البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه قوله: «**فَيَأْتِيهِمْ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً وَاحِداً**»(١)، نسأل الله تعالى أنْ يجعل سجودنا خالصاً لوجهه الكريم.

وللسجود أثره العظيم في مغفرة الذنوب ورفعة الدرجة، كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه بإسناده، عن معدان بن أبي طلحة اليعمري، قَالَ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي الله بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ: قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله، فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لله، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لله سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ الله بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**» قَالَ مَعْدَانُ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ لِي ثَوْبَانُ(٢).

وجاء في الصحيح في حديث شفاعة النّبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لأمته، قال عليه الصلاة والسلام: «**فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدّاً، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ**»(٣) وما ذلك إلا لعظيم شأن السجود، وأهميته لعباد الله المؤمنين، ومنزلة الساجد عند الله عز وجل.

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٣٩). (٢) صحيح مسلم (١١٢١).
(٣) صحيح البخاري (٤٤٧٦)، صحيح مسلم (٤٩٥).

فلا تستعظم مسألتك أيها العبد، ولا تستكثرها على المعطي؛ بل أدع الله وأنت موقن بإجابته، ومحسن للظن به.

أما عن الذكر الوارد في السجود، فقد وردت عدة صيغ عن النّبي ﷺ في ذلك منها ما صحّ عَنْ حُذَيْفَةَ بنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَكَعَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**»[(٢)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: بِتُّ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَبَقَيْتُ كَيْفَ يُصَلِّي رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: فَقَامَ فَبَالَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الْقِرْبَةِ، فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، ثُمَّ صَبَّ فِي الْجَفْنَةِ أَوِ الْقَصْعَةِ، فَأَكَبَّهُ بِيَدِهِ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءاً حَسَناً بَيْنَ الْوُضُوءَيْنِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَتَكَامَلَتْ صَلَاةُ رَسُولِ الله ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ نَامَ حَتَّى نَفَخَ، وَكُنَّا نَعْرِفُهُ إِذَا نَامَ بِنَفْخِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَصَلَّى، فَجَعَلَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ، أَوْ فِي سُجُودِهِ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، وَعَنْ يَمِينِي نُوراً، وَعَنْ شِمَالِي نُوراً، وَأَمَامِي نُوراً، وَخَلْفِي نُوراً، وَفَوْقِي نُوراً، وَتَحْتِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً، أَوْ قَالَ: وَاجْعَلْنِي نُوراً**»[(٣)].

فكانت أدعية النبي ﷺ من أجمع الدعوات، وأفضلها، وأعزها، وأكرمها، أن يسأل الله الثبات على دينه، وأنْ ينور قلبه بطاعة ربه، فجعله في هذا الموضع، فكونه ساجداً بين يدي الله، وكونه في ظلمات الليل التي هدأت

(١) سنن ابن ماجه (٨٨٨)، سنن أبي داود (٨٧١)، جامع الترمذي (٢٦٢).
(٢) صحيح مسلم (١١١٢).
(٣) صحيح البخاري (٦٣١٦)، صحيح مسلم (١٨٢٤).

فيها العيون، وسكنت فيها الجفون، يدل على شرف هذا الموضع، فاختار له هذه الدعوات العظيمة، وهي الثبات على الدين، فالمقصود هو أنَّ من هدي رسول الله ﷺ الدعاء في السجود، فعلى الإنسان أن يدعو ويسأل الله من فضله، وأنْ يحرص على الأدعية الواردة في السُّنَّة النّبوية فهي خير من غيرها لما اشتملت عليه من جوامع الخير في الدنيا والآخرة، ومن هذه الأدعية ما ثبت عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، عَن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «**اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وَأَنْتَ رَبِّي، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**»[(١)].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(٢)].

وقد ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها، أنَّه ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[(٣)].

ومعناه: أسبحك وأنزهك حال كوني أحمدك بجميل الصفات والأسماء والأفعال، فلما كان العبد في هذا الحال من التعبد، ناسب أن يطلب المغفرة من ربه، وقولها: (يتأول القرآن)، تريد قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣**﴾ [النصر].

فإذا أتمَّ العبد سجوده، وقضى ما ورد فيه من الأذكار والأدعية، فإنَّه يشرع له الرفع من السجود، والجلوس بين السجدتين، وهذا ركن من أركان الصلاة أيضاً، كما هو حال القيام والركوع والسجود وغيرها من الأركان، وفيه من الأسرار والطمأنينة كما في غيره من الأركان، ولكون هذا الركن يقع

(١) صحيح مسلم (١٨٤٨). (٢) صحيح مسلم (١١١٨).
(٣) صحيح البخاري (٨١٧)، صحيح مسلم (١١١٣).

بين سجدتين، فقد كان رسول الله ﷺ يطيل الجلوس فيه كما يطيله في الركوع والسجود، كما صحّ في الحديث عن ثابت، أنَّ أنساً رضي الله عنه قال: «إِنِّي لَا آلُو أَنْ أُصَلِّي بِكُمْ كَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي بِنَا». قَالَ ثَابِتٌ: (كَانَ أَنَسٌ يَصْنَعُ شَيْئاً لَمْ أَرَكُمْ تَصْنَعُونَهُ، كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَامَ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ قَدْ نَسِيَ، وَبَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ قَدْ نَسِيَ)[(١)]، وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: (وكان هديه ﷺ إطالة هذا الركن بقدر السجود، وهذا ثابت عنه في جميع الأحاديث ـ وذكر حديث أنس السابق ـ وهذه السُّنَّة تركها أكثر الناس من بعد انقراض عصر الصحابة، ولهذا قال ثابت: (وكان أنس يصنع شيئاً لا أراكم تصنعونه ويمكث بين السجدتين حتى نقول قد نسي أَو قد أَوهم)، وأما من حكّم السُّنَّة، ولم يلتفت إلى ما خالفها، فإنَّه لا يعبأ بما خالف هذا الهدي)[(٢)].

ففي هذه الجلسة فإنَّ العبد يجلس جاثياً بين يدي ربه جلَّ في علاه، معتذراً إليه مما قدمت يداه، ففي هذه الحالة لذة غير التي في غيرها من الأركان، فترى العبد جالساً متضرعاً إلى ربه ومولاه، معترفاً بذنبه طالباً للمغفرة، ويسأله الرحمة والهداية والرزق والعافية، وكأنَّ لسان حال العبد وهو يتحول بين وضعيات الصلاة يقول: (ربّ قد وقفت بين يديك لتغفر لي وتهدني إلى صراطك المستقيم)، ففي كل حالات الصلاة يشرع طلب الهداية والمغفرة من الله تعالى، عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي**»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول بين السجدتين، في صلاة الليل: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي**»[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري (٨٢١)، صحيح مسلم (١٠٨١).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٢٣٢).
(٣) سنن ابن ماجه (٨٩٧).
(٤) سنن أبي داود (٨٥٠)، سنن ابن ماجه (٨٩٨)، جامع الترمذي (٢٨٤).

التحيّات

ثبت في الحديث، عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِي ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى الله، فَإِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لله، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا النَّبِي وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ، أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو**»(١).

قَوْله: **(التَّحِيَّات):** جمع تحية، ومعناه: السلام، وقيل: البقاء، وقيل: العظمة، وقيل: السلامة من الآفات والنقص، وقيل: الملك، وقال ابن الأثير: (**التحيات:** كلمات مخصوصات، كانت العرب تحيي بها الملوك عند الملاقاة، وألفاظها لا يصلح شيء منها للثناء على الله تعالى، فتركت أعيان تلك الألفاظ واستعمل منها معنى التعظيم، فقيل: قولوا: **التحيات لله**؛ أي: أنواع التعظيم لله كما يستحقه)(٢)، قال الخطابي: (وروي عن أنس رضي الله تعالى عنه، في أسماء الله تعالى: السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار الأحد الصمد، قال: التحيات لله بهذه الأسماء، وهي الطيبات، لا يحيّى بها غيره)(٣).

إذاً؛ فإنَّ التحية تكون للملوك، وإنَّ الله ﷻ هو ملك الملوك وجبار

---

(١) صحيح البخاري (٨٣٥).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٨٣).
(٣) شرح سنن أبي داود، للعيني (٤/ ٢٣٧).

السمٰوات والأرض، فالأمر أمره والحكم حكمه، ولا يمكن للعبد أن يقف بين يديه إلا بأمره وتوفيقه، وتشتمل على الحياة والبقاء والسلامة، فالله تعالى سالم من كل نقص وعيب، وإنَّه ﷻ يسلّم عباده المؤمنين، فجاءت قبلها (ال) لاستغراق جميع معاني التحية لله تعالى، وكذلك جاءت بصيغة الجمع للمبالغة في تعظيم الله تعالى، ثم قال بعدها: (لله) من أجل الاختصاص، وهذا كما في قول العبد في أول الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فجاءت العبادة بصيغة الجمع لتعظيم المعبود وقدّم الضمير للاختصاص، وفي هذا القول يجتمع تذلل الهيئة واللفظ، فهيئة العبد أنَّه جاثٍ على ركبتيه وهذا جلوس المتذلل الخاشع، وكذلك تذلل العبد إلى ربه باللفظ بالثناء على الله تعالى بما هو أهله، وقدم في ذلك ذكر التحية على الصلاة؛ إذ إنَّ التحية تقدم على غيرها من عبارات الثناء والتمجيد.

قوله: **(والصلوات)**؛ أي: الصلوات كلها لله وحده، وتشتمل على الصلاة المفروضة وجميع العبادات، إذ إنَّ كل عبادة فهي صلة بين العبد وربه، وكذلك تشتمل على الدعاء، وذلك لأنَّ الصلاة في اللغة معناها الدعاء، وفي قول: **(الصلوات لله)** تخصيص كل صلاة لله تعالى، فلا يصلى لغير الله، والعبادة كذلك، فالعبد مأمور بأن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، ومن تمعن في أذكار الصلاة علم بأنَّ أركان الصلاة جزء واحد لا ينفك بعضها عن بعض، وهي مرتبطة فيما بينها بالمعاني، ففي قول: **(والصلوات)** يتفكر العبد بمعاني العبودية الواردة في سورة الفاتحة وغيرها من الأركان.

وقوله: **(الطيبات)**؛ أي: الكلمات الطيبات مما طاب من الكلام، وحسن أن يثنى به على الله تعالى دون ما لا يليق بصفاته، لأنّه ليس من طيب الأقوال، وينفي كل عبادة لا يراد بها وجه الله تعالى؛ لأنها ليست من طيب الأعمال، وهذا من كمال الثناء على ملك الملوك، وقال الشيخ تقي الدين: (وأمّا الطيبات، فقد فسرت بالأقوال الطيبات، ولعل تفسيرها بما هو أعم أولى، أعني: الطيبات من الأفعال والأقوال والأوصاف، وطيب الأوصاف

كونها صفة الكمال، وخلوصها عن شوب النقص)[١]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتهية إليه، قال النّبي ﷺ: «**إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»[٢])[٣]، وفي ذكر الطيبات مع أنّها تشتمل على كل فعل طيب، وذكر قبلها التحيات مع أنَّها تدخل في الطيب القولي، وذكر الصلوات مع أنَّها تدخل ضمن الطيب الفعلي، وجه من وجوه البلاغة العربية، وهو ذكر الخاص وبعده المجيء بالعام.

وقوله: **(السَّلَام عَلَيْك أَيهَا النَّبِي)**، قَالَ الطيبي: (أصل سلام عليك: سلمت سَلاماً عليك، ثمَّ حذف الفعل، وأقيم المصدر مقامه، وعدل عن النصب إِلى الرّفع للابتداء، للدلالة على ثُبوت الْمعنى واستقراره)[٤]، والسَّلام: اسم من أَسماء الله تعالى، وضع المصدر موضع الاسم مبالغة، والمعنى: أَنَّه سالم من كل عيب وآفة ونقص وفساد، ومعنى قولنا: **(السَّلَام عَلَيْك)** الدُّعاء؛ أي: سلمت من المكاره، وقيل: معناه: اسْم السلام عليك كأنّه يتبرك عليه باسم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإِن قلت: ما الحكمة في العدول عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: **(عليك أيها النّبي)**، مع أنَّ لفظ الغيبة هو الذي يقتضيه السياق، كأن يقول: السلام على النّبي فينتقل من تحية الله إلى تحية النّبي، ثمّ إلى تحية النّفس، ثم إلى تحية الصالحين؟ قلت: أجاب الطّيبي بما محصله: نحن نتبع لفظ الرسول ﷺ بعينه، الذي علَّمه للصحابة، ويحتمل أن يقال على طريقة أهل العرفان: أنّ المصلّين لما استفتحوا باب الملكوت بالتحيات، أذن لهم بالدخول في حريم الحي الذي لا يموت، فقرت أعينهم بالمناجاة، فنبهوا على أنَّ ذلك بواسطة نبي الرحمة وبركة متابعته، فإذا التفتوا فإذا الحبيب في حرم الحبيب حاضر، فأقبلوا عليه قائلين: السلام عليك أيها النّبي ورحمة الله وبركاته، فإن قلت: ما الألف واللام، في السلام عليك؟ قلت: قال الطيبي:

---

(١) شرح سنن أبي داود، للعيني (٤/ ٢٣٨).
(٢) صحيح مسلم (١٠١٥).
(٣) ذوق الصلاة عند ابن القيم، لعادل الزرقي (٨٠).
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٢/ ٣١٣).

أما للعهد التقديري؛ أي: ذلك السلام الذي وجه إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدمة موجه إليك أيها النّبي، والسلام الذي وجه إلى الأمم السالفة من الصلحاء علينا وعلى إخواننا، وإما للجنس؛ أي: حقيقة السلام الذي يعرفه كل أحد أنّه ما هو؟، وعمّن يصدر؟، وعلى من ينزل علينا وعليك؟ وأمّا للعهد الخارجي، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩]، قال بدر الدين العيني: (وقال الشيخ حافظ الدين النّسفي؛ يعني: السلام الذي سلم الله عليك ليلة المعراج، قلت: فعلى هذا تكون الألف واللام فيه للعهد، فإن قلت: لمَ عدَل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنّبوة، مع أنَّ الوصف بالرسالة أعمّ في حق البشر، قلت: الحكمة في ذلك أن يجمع له الوصفين لكونه وصفه بالرسالة في آخر التشهد، وإن كان الرسول البشري يستلزم النّبوة، لكن التصريح بها أبلغ، وقيل: الحكمة في تقديم الوصف بالنّبوة، أنّها كذلك وجدت في الخارج لنزول قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، قبل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر])[١].

قوله: **(وَرَحْمَة الله)**، من الرّحمة، **(وَبَرَكَاته)**: جمع بركة وهو الْخير الكثير من كل شيء، واشتقاقه من البرك، وهو صدر الْبعير، وبرك البعير: ألْقى بركه، واعتبر منه معنى اللُّزوم، وسمي محبس الماء بركة، للزوم الماء فيها، وقال الطيبي: البركة ثبوت الْخير الإلٰهي في الشَّيء، سمي بذلك لثبوت الْخير فيه، ثبوت الماء في البركة، والمبارك ما فيه ذلك الْخير، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، تنبيهاً على ما تفيض منه الخيرات الإلٰهية، ولما كان الخير الإلٰهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى، قيل لكل ما يشاهد فيه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، أو: فيه بركة.

وقد جاء بالتسليم على النَّبيِّ ﷺ بعد التحيات؛ لأنَّ العبد لما أثنى على الله تعالى ناسب أن يذكر النَّبيَّ ﷺ بعدها لذكر فضل هذا النَّبيِّ الكريم الذي بلغنا هذا الدين القويم، وفي هذا القول تنزيه للنبي ﷺ من العيوب التي

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ١١٢).

ينسبها إليه أعداء الإسلام ودعا له بالرحمة والبركة، وقدّم العبد السلام على النبي ﷺ لعظيم منزلة هذا النبي الكريم ولفضله على المؤمنين، وكذلك فإنَّ العبد مأمور بأنْ يحب النَّبيَّ ﷺ أكثر من نفسه وأهله والنَّاس جميعاً، كما في حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(١)].

قوله: **(السَّلَام علينا)**، أراد بها الحاضرين من الإمام والمأموم والملائكة عليهم السلام، وقد جاء ذكر التسليم على النفس لأهمية هذا الأمر للمؤمن، بأن يدعوا الله تعالى أن يسلِّمه من أدران الذنوب والمعاصي، وأن يسلمه من وساوس الشياطين وكل أمر يزيغه عن صراط الله المستقيم.

ثم قال: **(وعَلى عباد الله الصَّالِحين)**، وفيه إشارة إلى أهمية الصلاح للمؤمن، وأنَّ العبد كلما ازدادت عبوديته لربه ومولاه ازداد صلاحه، ويدل على أنَّ عدم الصلاح شؤم للمرء، وأنَّه لا ينال هذه الدعوات التي يدعو بها كل مؤمن في كل صلاة، وفي هذا الدعاء حثٌّ للعبد بأن يحب لإخوانه المؤمنين كما يحب لنفسه، كما جاء ذلك عن النبي ﷺ، فعلى العبد أن يصلح نفسه لينال رضوان الله تعالى، وأن يدخل مع عباد الله المؤمنين، ولتتوالى عليه أدعية إخوانه في كل وقت، والصالح: هو القائم بما عليه من حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، والصلاح هو استقامة الشيء على حالة كماله، كما أنَّ الفساد ضده، ولا يحصل الصلاح الحقيقي إلا في الآخرة؛ لأنَّ الأحوال العاجلة وإنْ وصفت بالصلاح في بعض الأوقات، لكن لا تخلو من شائبة فساد وخلل، ولا يصفو ذلك إلا في الآخرة، خصوصاً لزمرة الأنبياء لأنَّ الاستقامة لا تكون إلا لمن فاز بالقدح المُعَلَّى، ونال المقام الأسنَى، ومن ثم كانت هذه المرتبة مطلوبة للأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى في حق الخليل: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]، وحكى عن يوسف عليه السلام أنّه دعا بقوله: **(توفني مُسلماً وألحقني بالصالحين)**.

(١) صحيح البخاري (١٥)، صحيح مسلم (١٧٧).

قوله: ﴿فَإِنَّكُم إِذا قُلْتُمُوهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْض﴾ معترضة بين قوله: ﴿وعلى عباد الله الصالحين﴾، وبين قوله: ﴿أشهد أَن لَا إِلٰه إِلَّا الله﴾، والضمير المنصوب في ﴿قلتموها﴾، يرجع إلى قوله: ﴿وعلى عباد الله الصالحين﴾، وفائدة هذه الجملة المعترضة الاهتمام بها، لكونه أنكر عليهم عد الملائكة واحداً واحداً، ولا يمكن استيعابهم لهم مع ذلك، فعلمهم لفظاً يشمل الجميع مع غير الملائكة، من النّبيين والمرسلين والصديقين وغيرهم بغير مشقة، وهذا من جوامع الكلم التي أوتيها النّبي ﷺ.

قوله: ﴿أشهد أَن لَا إِلٰه إِلَّا الله، وَأشْهد أَن مُحَمَّداً عبد وَرَسُوله﴾.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: عَلمنِي رَسُول الله ﷺ التَّشَهُّد، كفي بَين كفيه، كَمَا يعلمني السُّورَة من الْقُرْآن، فَقَالَ: «**إِذا قعد أحدكُم فِي الصَّلَاة فَلْيقل: التَّحِيَّات لله، والصلوات، والطيبات، السَّلَام عَلَيْك أَيهَا النَّبِي وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته السَّلَام علينا وعَلى عباد الله الصَّالِحين، فَإِذا قَالَهَا أَصَابَت كل عبد صَالح فِي السَّمَاء وَالْأَرْض، أشهد أَن لَا إِلٰه إِلَّا الله، وَأشْهد أَن مُحَمَّداً عَبده وَرَسُوله**»[(١)]، وروى ابن جُبَير وَطَاوُوس، عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ يعلمنَا التَّشَهُّد كَمَا يعلمنَا السُّورَة من الْقُرْآن، وَكَانَ يَقُول: «**التَّحِيَّات المباركات الصَّلَوَات الطَّيِّبَات لله، السَّلَام عَلَيْك أَيهَا النَّبِي وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته، السَّلَام علينا وعَلى عباد الله الصَّالِحين، أشهد أَن لَا إِلٰه إِلَّا الله، وَأشْهد أَن مُحَمَّداً عَبده وَرَسُوله**»[(٢)].

أما الشهادة فهي إخبار بما في القلب، وأن ينطق بما في القلب اللسان، ولهذا يسمى الشاهد شاهداً؛ لأنه شهد بشيء ثابت في قلبه فنطق به بلسانه، فلا يعتبر شاهداً حتى يتكلم، فإذا تكلم فهو أثبت، وبيّن ما في قلبه واستقر وظهر به، مع أنّ العلم بها مستقر قبل ذلك، وفيها تجديد العهد لله بالشهادة في كل صلاة، ولهذا أصل معنى الشهادة في قوله: أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله

(١) صحيح البخاري (٦٢٦٥)، صحيح مسلم (٤٠٢).
(٢) صحيح مسلم (٩٢٩).

أن تخبر عما في قلبك؛ لأن الله ﷻ جعل الإيمان قولاً وعملاً، وفي قوله: أشهد أن لا إلٰه إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، والشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة أنَّه خاتم الأنبياء والمرسلين بعثه الله ﷻ للناس كافة، ختم به سائر الرسالات، وأنزل عليه كتابه الحكيم، القرآن الكريم.

الصلاة على النبي ﷺ والدعاء بعدها

عن عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى، قَال: لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً؟ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ؟ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ، قَالَ: «**فَقُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[(١)].

قال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

وإنَّ العبد حين ينتهي من أفعال الصلاة التي هي قبل الجلوس الأخير، فقد شرع له أن يجلس جلسة الراغب الراهب ليسأل الله تعالى من الأمور التي لا ينفك عن الاحتياج إليها من أمور دنياه وآخرته، فيتقدم ذلك بكلمات التحيات التي بيّناها، ثمّ يتبعها بالصلاة على نبي الرحمة الذي كان سبباً في هدايته وسعادته وجلوسه لمناجاة ربه، ولسان حاله أنَّه يتوسل إلى ربه ومولاه بما سبق منه من عبوديته له، وبالثناء عليه ﷻ، وبالشهادة لرسوله بالرسالة، وبالصلاة على هذا الرسول الأمين، فإذا فعل هذا وأدى ما عليه من الحق فإنَّه يشرع له أنْ يسأل الحق الذي له، وهو أن يسأل الله تعالى ما يشاء، فيتخيّر من الدعاء أعجبه إليه.

وقال الحليمي في الشعب: (معنى الصلاة على النّبي ﷺ: تعظيمه،

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٩)، صحيح مسلم (٤٠٧).

فمعنى قولنا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمد: عظّم محمداً، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة: بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود)[1]، وعلى هذا؛ فالمراد بقوله تعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾: ادعوا ربكم بالصلاة عليه، ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه، فإنَّه لا يمتنع أن يُدعى لهم بالتعظيم، إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به، وما تقدّم عن أبي العالية أظهر، فإنّه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله، وإلى ملائكته، وإلى المؤمنين، المأمورين بذلك.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وشرعت الصلاة على آله مع الصلاة عليه تكميلاً لقرة عينه بإكرام آله والصلاة عليهم، وأن يصلي عليه وعلى آله كما صلى على أبيه إبراهيم وآله، والأنبياء كلهم بعد إبراهيم من آله، لذلك كان المطلوب للرسول ﷺ صلاة مثل الصلاة على إبراهيم، وعلى جميع الأنبياء بعده وآله المؤمنين، فلهذا كانت هذه الصلاة أكمل ما يصلي على رسول الله ﷺ بها وأفضل)[2].

ومن الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ كما ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام»:

الأولى: امتثال أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثانية: موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ، وإن اختلفت الصلاتان.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها.

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

الخامسة: أنه يرفع عشر درجات.

السادسة: أنه يكتب له عشر حسنات.

السابعة: أنه يمحى عنه عشر سيئات.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ١٣٤). (٢) ذوق الصلاة عند ابن القيم (٨٢).

الثامنة: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند ربِّ العالمين.

التاسعة: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردها.

العاشرة: أنها سبب لغفران الذنوب.

الحادية عشر: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.

الثانية عشر: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

الثالثة عشرة: أنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة.

الرابعة عشرة: أنها سبب لقضاء الحوائج.

الخامسة عشرة: أنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه.

السادسة عشر: أنها زكاة للمصلي وطهارة له.

السابعة عشرة: أنها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته.

الثامنة عشرة: أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.

التاسعة عشرة: أنها سبب لرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

العشرون: أنها سبب لتذكر العبد ما نسيه، كما تقدم.

الحادية والعشرون: أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.

الثانية والعشرون: أنها سبب لنفي الفقر.

الثالثة والعشرون: أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره ﷺ.

الرابعة والعشرون: أنها ترمي صاحبها على طريق الجنة وتخطئ بتاركها عن طريقها.

الخامسة والعشرون: أنها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه الله ورسوله ويحمد ويثنى عليه فيه ويصلى على رسوله ﷺ.

السادسة والعشرون: أنها سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله.

السابعة والعشرون: أنها سبب لوفور نور العبد على الصراط.

الثامنة والعشرون: أنه يخرج بها العبد عن الجفاء.

التاسعة والعشرون: أنها سب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض: لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه، والجزاء من جنس العمل، فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

الثلاثون: أنها سبب للبركة في ذات المصلي وعمله وعمره، وأسباب مصالحه؛ لأنَّ المصلي داع ربه أن بارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب، والجزاء من جنسه.

الحادية والثلاثون: أنَّها سبب لنيل رحمة الله له؛ لأنَّ الرحمة إما بمعنى الصلاة كما قاله طائفة، وإما من لوازمها وموجباتها على القول الصحيح، فلا بد للمصلي عليه من رحمة تناله.

الثانية والثلاثون: أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأنَّ العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب، واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه، تضاعف حبه له وتزايد شوقه إليه.

الثالثة والثلاثون: أنَّ الصلاة عليه ﷺ سبب لمحبته للعبد، فإنَّها إذا كانت سبباً لزيادة محبة المصلى عليه له، فكذلك هي سبب لمحبته هو للمصلي عليه ﷺ.

الرابعة والثلاثون: أنَّها سبب لهداية العبد وحياة قلبه، فإنَّه كلما أكثر الصلاة عليه وذكره، استولت محبته على قلبه، حتى لا يبقى في قلبه معارضة لشيء من أوامره، ولا شك في شيء مما جاء به.

الخامسة والثلاثون: أنَّها سبب لعرض اسم المصلي عليه ﷺ وذكره عنده.

السادسة والثلاثون: أنَّها سبب لتثبت القدم على الصراط، والجواز عليه.

السابعة والثلاثون: أنَّ الصلاة عليه ﷺ أداة لأقل القليل من حقه، وشكر له على نعمته التي أنعم الله بها علينا، مع أنَّ الذي يستحقه من ذلك لا يحصى علماً ولا قدرة ولا إرادة.

الثامنة والثلاثون: أنها متضمنة لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله؛ فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله.

التاسعة والثلاثون: أنَّ الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان:

أحدهما: سؤاله حوائجه ومهماته، وما ينويه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال، وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

الثاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه وإيثاره ذكره ورفعه.

وبعد التحيات والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، شرع لنا أن نختار من الدعاء ما نشاء، وذلك لأنَّ حاجات الناس تختلف، فهذا مريض، وآخر مبتلى، وبعضهم يريد العلم، وآخرون يطلبون الرزق، وكلهم مفتقر إلى ربه، يرجو رحمته، ويطلب المزيد من فضله، ويخشى عقابه، ويستعيذ الله منه، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**ثم يتخيّر من الدعاء أعجبه إليه**».

وكان رسول الله ﷺ يعلِّم أصحابه الدعاء، فيحضهم عليه، ويأمرهم به، ويقول: «**إنَّ الدعاء هو العباد**»، ويتلوا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر][(١)]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (السعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله).

(١) سنن أبي داود (١٤٧٩)، سنن ابن ماجه (٣٨٢٨)، جامع الترمذي (٢٩٦٩)، صحيح ابن حبان (٨٩٠).

عن عبد الله قال: كنّا إذا كنّا مع النّبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى الله، فَإِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لله، وَالصَّلَوَاتُ، وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِي وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُم إِذَا قُلْتُمْ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ، أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو**»[(١)]، ومع هذا فقد جاءت السُّنَّة ببعض الأدعية، وذلك إمّا لشمولها، وحاجة جميع العباد منوطة بها، وإمّا لأهميتها، وتذكير النّاس بها، حتى لا يغفلوا عنها، أو: كلاهما.

عَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عَنْه، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[(٢)].

وفي هذا الحديث توجيه نبوي إلى أنَّ العبد ينبغي عليه أن يعترف بتقصيره تجاه ربه، وأنَّ النفس لا بد أمارة بالسوء، فالإنسان عندما يعرف أنه مذنب ومقصر تجاه ربه، سيبقى مفتقراً إليه، ومتذللاً وخاشعاً لجنابه، راجياً عفوه ورحمته وغفرانه، ويعلم أنَّه لا يغفر الذنب غير الرب العظيم، كما جاء في الحديث، عن علي رَضِيَ الله عَنْه، وفيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ، إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**»[(٣)].

وجاء أيضاً عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بالله مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ،**

(١) صحيح البخاري (٨٣١)، صحيح مسلم (٤٠٢).
(٢) صحيح البخاري (٨٣٤)، صحيح مسلم (٢٧٠).
(٣) سنن أبي داود (٢٦٠٢).

وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[(١)].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّه كان يقول: (أنَّ رسول الله ﷺ كان يعلِّمهم هذا الدعاء، كما يعلِّمهم السورة من القرآن)[(٢)]، وما ذلك إلا لعظم ما في هذا الدعاء من الأهمية، وما يشتمل عليه من الخير الوافر الجزيل، قال الشيخ البسام في شرحه على العمدة: (إنَّ هذه الاستعاذة من مهمات الأدعية وجوامعها، لكون النبي ﷺ عُنِيَ بها، ولاشتمالها على الاستعاذة من شرور الدنيا والآخرة وأسبابها، ولذا أمر بتكريرها في هذه المواطن الفاضلة، لرجاء الإجابة فيها)[(٣)]، ومن نظر في هذا الدعاء وتأمله، فإنَّ فيه الاستعاذة من أمور خطيرة، وهي:

١ ـ عذاب جهنَّم: وفيه إشارة إلى أنَّه لا مخلص من عذابها إلا بالالتجاء إلى بارئها، قال ربنا تبارك وتعالى في وصف أحوال عباده، في شدة استعاذتهم من هذه النّار: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [الفرقان].

٢ ـ عذاب القبر: ثبوت عذاب القبر وأنَّه حق، وأنَّ الإيمان به واجب، فإذا علم ذلك المؤمن الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، تضرع إلى الخالق والتجأ إليه لوقايته من هذا العذاب، حيث يصير العبد وحيداً فريداً في قبره، ليس له ما يؤنسه إلا ما يقدّمه بين يديه من العمل الصالح، فسارع أخي المؤمن إلى ما يكون لك أنيساً في لحدك.

٣ ـ فتنة المحيا والممات: والمراد من هذه الفتنة: هو ما يعرض للإنسان مدّة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات، والجهالات، وأعظمها ـ عياذاً بالله ـ أمر الخاتمة عند الموت، وقيل: هي الابتلاء مع عدم الصبر،

---

(١) صحيح البخاري (١٣٧٧)، صحيح مسلم (٥٨٨)، وهذا لفظ مسلم.
(٢) صحيح مسلم (١٣٦١).
(٣) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للشيخ عبد الله البسام (١/ ٢١٢).

وفتنة الممات: قيل المراد بها: الفتنة عند الموت، أُضيفت إليه لقربها منه.

٤ ـ فتنة المسيح الدجال: جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ**»(١)

ومن الأدعية التي كان يواظب عليها رسول الله ﷺ ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ**»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(٢).

والمأثم؛ أي: مما يأثم به الإنسان، أو مما فيه إثم، أو مما يوجب الإثم، أو الإثم نفسه، فلما علم النّبي ﷺ أنَّ هلاك الإنسان يوم القيامة إنّما يكون من ذنوبه، أرشد أمّته إلى الحصون التي يلتجئون إليه للخلاص منها، وأعظم هذه الحصون وأَوْلاها، سؤال الله العصمة من الآثام، والبعد عن الأسباب الموقعة فيها.

والمغرم: هو الدَّين، ويريد به ما استُدين فيما يكرهه الله، أو فيما يجوز، ثمّ عجز عن أدائه، أمّا دَيْنٌ احتاج إليه، وهو قادر على أدائه، فلا يُستعاذ منه.

وقد بيّن رسول الله ﷺ سبب تكراره ومواظبته على هذا الدعاء، وذلك أنَّ الرجل إذا غرم، حدّث فكذب، لأنه إذا تقاضاه صاحب الدين، فلم يجد ما يؤدي به دينه، يكذب ليتخلص منه، ويقول: لي مال غائب، إذا حضر أؤدي دينك، (ووعد)؛ أي: في المستقبل، بأن يقول: أعطيك غداً، أو في

---

(١) صحيح البخاري (٧١٣١)، صحيح مسلم (٢٩٣٣).
(٢) صحيح البخاري (٨٣٢)، صحيح مسلم (٥٨٧).

المدّة الفلانية، فيخلف في وعده، وحاصل ما تقدم: أنَّ الدَّين يؤدي إلى خلل بالدِّين، فلذلك وقعت العناية بالاستعاذة منه.

ومن الأدعية الواردة في هذا المقام ما جاء عن معاذ بن جبل ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك والله إني لأحبك**»، فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللَّهُمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[١].

الإعانة على هذه الأمور يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، **(على ذكرك)**؛ يعني: بالقلب واللسان.

(وعلى شكرك): بالقلب واللسان والجوارح، **(وعلى حسن عبادتك)**: فهو أخص من الشكر؛ لأنَّ الشكر يحصل بالعبادة، وإن كانت على غير الوجه الأحسن، لكن على حسن عبادتك أخص.

قال الشيخ عطية محمد سالم في شرح بلوغ المرام: (متى يكون العمل حسناً؟ هذا الذي ينبغي الحرص عليه، **ويكون ذلك بثلاثة أمور**:

الشرط الأول: أن يكون مشروعاً مطابقاً لما جاء عن الله وعن رسول الله، فلا تأتي بعبادة لله من غير ما شرع الله، فيقول لك: أنا ما شرعت هذا، ولما تعبد الله بغير ما شرعه رسول الله يقول: أنا ما جئتك بهذا، إذاً: المبدأ الأول في صلاح العمل وإحسانه: أن يكون مطابقاً لما جاء عن الله وعن رسول الله؛ لأنَّها عبادة لله، فالله الذي تعبَّدَنا هو الذي بيّن لنا كيف نعبده، وهل ندري ما يرضيه وما لا يرضيه؟ لا نعلم، فلما بيّن لنا وشرع لنا وأمرنا ووجهنا يجب أن نلزم ذلك، ومن هنا نعلم: أنَّ كل من تعبّد الله بغير ما شرع الله أو بغير ما سن رسول الله فهو خارج عن هذا الباب، ولذا يقول ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[٢]؛ أي: مردود على صاحبه.

---

(١) أبو داود (١٥٢٢)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٩٩٣٧)

(٢) مسلم (١٧١٨).

وإمام دار الهجرة رضي الله تعالى عنه يقول: (لن يصلح أمر آخر الأمة إلا ما أصلح أولها)، فما كان عليه السلف الصالح من منهج في العبادة واقتصاد في العمل فهو المبدأ الأساسي.

الشرط الثاني: أنَّ الإنسان يأتي بهذا العمل خالصاً لوجه الله، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، ولذا شرع أن يقول المصلي عقب الصلاة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له).

الشرط الثالث: أن يكون العمل صادراً من مؤمن لا منافق أو كافر؛ لأنَّ الكافر قد يطعم المسكين، ويكسو العريان، ويبني الطرق والمدارس والمستشفيات، ولكن هل يُعد له عملاً صالحاً كما يعد للمؤمن؟ لا، وهل يضيع عمله؟ لا، فالله ﷻ حكيم عليم، عادل لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فإذا عمل الكافر عملاً قال له: لك عملك، ويعطيه ويعوضه في الدنيا بقدر ما أحسن فيها، أمَّا في الآخرة ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان]؛ لأنَّه لم يكن على قاعدة، ولم يعمله إيماناً بالله، وإنَّما عمله مجاراةً للناس أو لجلب مصالح، أو لأمر آخر، فيأخذ أجره عاجلاً.

فإذا اجتمعت هذه الشروط الثلاث كان العمل صالحاً حسناً)[١].

❁ ❁ ❁

(١) شرح بلوغ المرام لعطية سالم (٦/ ٧٠).

التسليم وما معه من الذكر

إنَّ العبد إذا أتمَّ أفعال الصلاة التي شرعها الله له لم يبق له إلا الانصراف والتحلل من الصلاة ومغادرتها، وذلك يكون بالتسليم؛ لأنَّ الصلاة كما ذكرنا سابقاً تحريمها التكبير وتحليلها التسليم، ويكون ذلك في قوله: **(السلام عليكم ورحمة الله)** والحكمة من ذلك والله أعلم كما ذكر الامام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما معناه: أنَّ العبد لما كبّر للصلاة وشرع فيها وتقدم كيف أنّه طلب من الله تعالى الحرز من الشيطان، وأنَّه ما دام في الصلاة فإنَّه في سلام ورحمات متوالية من خالق الأرض والسمٰوات، فلمّا أتم الصلاة شرع له أن يقول: **(السلام عليكم ورحمة الله)** ليبقى في هذه الحماية والحرز من ربه ومولاه، فيحفظه من وساوس الشياطين حتى يأتي وقت الصلاة الثانية.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَفْتِحُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ، وَالْقِرَاءَةِ بِـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾، وَكَانَ إِذَا رَكَعَ لَمْ يُشْخِصْ رَأْسَهُ، وَلَمْ يُصَوِّبْهُ، وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ لَمْ يَسْجُدْ، حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِماً، وَكَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السَّجْدَةِ، لَمْ يَسْجُدْ حَتَّى يَسْتَوِيَ جَالِساً، وَكَانَ يَقُولُ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ التَّحِيَّةَ، وَكَانَ يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقْبَةِ الشَّيْطَانِ، وَيَنْهَى أَنْ يَفْتَرِشَ الرَّجُلُ ذِرَاعَيْهِ افْتِرَاشَ السَّبُعِ، وَكَانَ يَخْتِمُ الصَّلَاةَ بِالتَّسْلِيمِ»، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ نُمَيْرٍ، عَنْ أَبِي خَالِدٍ: «وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عَقِبِ الشَّيْطَانِ»[(١)].

عن علقمة بن وائل، عن أبيه، قال: صليتُ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يُسَلمُ

(١) صحيح مسلم (١١٣٨).

عن يمينه: «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»، وعن شماله: «**السلام عليكم ورحمة الله**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدِّهِ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ**»، وَعَنْ شِمَالِهِ، حَتَّى يَبْدُو بَيَاضُ خَدِّهِ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ**»(٢).

فإذا سلّم العبد من صلاته فإنَّه يشرع له أن يستغفر الله ثلاث مرات، كما صحّ عن ثوبان رضي الله عنه أنَّه قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثاً، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**». قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الاِسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ الله، أَسْتَغْفِرُ الله(٣).

فهذا هو حال العبد في صلاته، وهو في مناجاة مع الخالق تبارك وتعالى: يحمده، ويتلو كتابه، ويسبحه، ويمجده، ويثني عليه، قائماً وراكعاً وساجداً متذللاً له وخاشعاً بين يديه، والاستغفار: طلب المغفرة، وطلب المغفرة إنَّما يكون من خطيئة أو ذنب، لذلك قال بعض العلماء: بأنَّ الاستغفار مباشرة عقب الصلاة تتمة لأمر الصلاة؛ لأنَّ المطلوب في الصلاة، أنَّ العبد يكون في رحلة مناجاة مع الله، فيعلمنا ﷺ أنَّه يقع من الإنسان بعض التقصير في حق الصلاة، سواء من كمال خشوعه وخضوعه فيها، أو من سهو عن بعض سُننها أو شروطها أو لوازمها، فحينما يفرغ منها يستشعر أنَّ هنالك تقصيراً منه في حق ربه، فكان النَّبيُّ ﷺ يستغفر ثلاثاً، وبتشريعه للاستغفار عقب الصلاة إنَّما يرشد إلى أنَّ ما كان من تقصير في الصلاة ـ كسرحان الذهن، ونحو ذلك ـ فإنَّما يجبره الاستغفار، فهو يستغفر الله عما كان منه من

(١) سنن أبي داود (٩٩٧).

(٢) مسند أحمد (٣٦٩٩)، سنن أبي داود (٩٩٦)، سنن ابن ماجه (٩١٤)، جامع الترمذي (٢٩٥)، سنن النسائي (١٣١٥)، صحيح ابن حبان (١٩٩٠).

(٣) صحيح مسلم (١٣٦٢).

ذلك التقصير، وإلا فالرسول ﷺ وهو سيد الخلق وسيد الخاشعين والمتواضعين لله، ولكنَّ التشريع هنا: ليستشعر العبد بأنَّ الاستغفار عقب الصلاة هو جبران لما يكون من تقصير فيها، فيبقى متذللاً لله راجياً لرحمته، خائفاً من عدم القبول، ولا يمنّ على الله بصلاته، ولا بسائر أعماله، فالمنَّة لله وحده، أنْ هدانا للإيمان، وأنْ يسر لنا الصلاة.

وقوله: **(أنت السلام، ومنك السلام)**، معناه: وأسألك يا رب السلامة في ديني ودنياي وفي أمري كله، والسلام: البراءة من العيوب، فأنت يا رب السالم من جميع العيوب والنقائص، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وفي هذا تعظيم لله وتنزيه له تعالى، ولا سلامة لنا في الدنيا والآخرة إلا بك ومنك يا ربنا، ونتوسل إليك يا ربنا بهذا الاسم الكريم بأن تسلّم لنا صلاتنا، حتى تكون رافعة للدرجات مكفرة للخطايا والسيئات، مكلّلة بالرضا والقبول منك يا ربنا.

وقوله: **(تباركت يا ذا الجلال والإكرام)**؛ أي: ذو العظمة والكبرياء، المستحق للإجلال والتعظيم، وذو الرحمة والجود، يكرم من أطاعه، ويرفع درجاتهم وذكرهم.

❀ ❀ ❀

الأذكار دبر الصلاة

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: (واذكروا الله كثيراً) يقول: (لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدّاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر فإن الله لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسرِّ والعلانية، وعلى كل حال)[١].

فباب الذكر بحر لا ساحل له، والناس يتفاضلون بسببه كثرة وقلة، وهو له شأن عظيم عند الله تعالى، وهو من أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى، والصلاة وإن كانت هي ذكر كلها كما سبق، لكنَّ الله تعالى قد شرع ذكراً للعبد بعد الصلاة لحكم عظيمة، ونكت لطيفة، **ومن هذه الأذكار**:

١ ـ عن وراد مولى المغيرة بن شعبة، قال: كتب المغيرة إلى معاوية بن أبي سفيان: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة إذا سلم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[٢].

قال الشيخ الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح: **(لا إله إلا الله وحده)**؛ أي: منفرداً في ذاته، **(لا شريك له)**؛ أي: في أفعاله وصفاته، وقال

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٠٣٨٠).
(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، صحيح مسلم (٥٩٣).

ابن حجر: (تأكيد بعد تأكيد لمزيد الاعتناء، بمقام التوحيد)، **(له الملك)**؛ أي: لا لغيره، **(وله الحمد)**: في الأولى والآخرة، **(وهو على كل شيء قدير)**: بالغ في القدرة، كامل في الإرادة، (اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت): من التوفيق على الطاعة، **(ولا معطي لما منعت)**: من العصمة عن المعصية، **(ولا ينفع ذا الجد)**: بالفتح ويكسر؛ أي: صاحب الحظ في العبادة، أو: صاحب الجد والاجتهاد في العلم والعمل، فضلاً عن الجاه والمال، **(منك)**؛ أي: من عذابك، أو: عندك، أو: بدل لطفك، **(الجد)**؛ أي: جده أو جده؛ بل لا ينفعه إلا فضلك وكرمك، ولا ينجيه منك إلا رحمتك).

وفي هذا الحديث بيان لما ينبغي من إخلاص العبودية لله تعالى، ليتذكر العبد دائماً أنَّ العمل لا يقبله الله تعالى إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، وليعلم أنَّ العبادة التي أداها ليست إلا بتوفيق الله تعالى له، وبفضله عليه، فيبقى العبد متذكراً منّة الله عليه، وأنَّ له الثناء الحسن أولاً وآخراً على ما هدى للأداء، ويبقى منطرحاً ومنكسراً لجناب ربه، راجياً منه تمام القبول بعد هدايته له بالعمل.

٢ - عن أبي الزبير، قال: كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «**لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إلٰه إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إلٰه إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون**» وقال: كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة[(١)].

(لا إلٰه إلا الله): لا معبود بحقّ سواه، فلا بد من كلمة بحقّ، فلا يقدَّر: لا معبود إلا الله؛ لأنَّ المعبودات كثيرة، وإنما المراد المعبود بحقّ، **(وحده)**؛ أي: حال كونه منفرداً في ذاته، **(لا شريك له)**؛ أي: في أفعاله، وصفاته، وعبادته. **(له)**؛ أي: لا لغيره. **(له الملك وله الحمد)**: في الأولى والآخرة، لا لغيره، فلا منعم ولا معطي سواه، فلا يصرف الحمد إلا له، **(وهو على كل**

---

(١) صحيح مسلم (٥٩٤).

شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله)، قال الأزهري: سمعت المنذري، يقول: سمعت أبا الهيثم يقول عن تفسير قوله: (**لا حول ولا قوّة إلا بالله**)، قال: (الحول: الحركة، تقول: حال الشخص: إذا تحرك، وكذلك كل متحول عن حاله، فكأنَّ القائل إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، يقول: لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله).

(**لا إلٰه إلا الله ولا نعبد إلا إياه**)، إذ لا يستحقّ العبادة سواه، (**له النعمة**)، المراد: جنس النعمة، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وله نعمة التوفيق على أداء العبادة والهداية للصلاة، (**وله الفضل**)؛ أي: له ﷻ الفضل بالقبول، (**الثناء الحسن**)؛ أي: الوصف الحسن على ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، (**لا إلٰه إلا الله مخلصين له الدين**)؛ أي: الصلاة، فهي خير العمل، وهي الدين والإيمان، (**ولو كره الكافرون**)؛ أي: كرهوا كوننا مخلصين ديننا لله، وكوننا عابدين وموحدين له تعالى.

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**من سبَّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»(١)

أخرج الطبري عن مجاهد، قال: قال ابن عباس في ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق]، قال: هو التسبيح بعد الصلاة.

تكلمنا في هذا الكتاب عن معنى التسبيح والتحميد والتكبير في غير هذا الموضع، لكن المناسبة هنا، والله أعلم، أنَّ التسبيح: وهو التنزيه، فينزه العبد ربه عن النقائص، وعن أنْ يصرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، والحمد: وهو الثناء الجميل على الله تعالى أنْ هدانا لأداء هذه الفريضة العظيمة، والتكبير، ليبقى العبد خاضعاً لله تعالى، ومعظماً له ومكبراً إياه، بصرف هذه

---

(١) صحيح مسلم (٥٩٧).

العبادة وغيرها له تعالى، ثم يوحد الله تعالى بخير كلمة يقولها العباد، لذلك كان الجزاء عظيماً من ربٍّ كريم لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فالجزاء هو غفران الذنوب وإنْ عظُمَت، فللَّه الحمد والشكر والفضل على ما منَّ به على عباده المؤمنين.

٤ ـ عن أبي أُمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أنْ يموت»**(١).

وهذا فيه بيان فضل هذه الآية المباركة، وكيف أنَّ المواظبة عليها دبر الصلوات الخمس سبب لدخول الجنة، وكيف لا، وهي أعظم آية في كتاب الله تعالى، فقد جاء عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟»**، قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، فضرب في صدري وقال: **«ليهنك العلم أبا المنذر»**(٢).

وجاء أيضاً في فضل هذه الآية العظيمة وأنَّها سبب للعصمة من الشيطان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعلي عيال، وبي حاجة شديدة، فخليت عنه، فأصبحت، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة»**، قلت: يا رسول الله شكا حاجةً وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، فقال: **«أما إنَّه قد كذبك، وسيعود»**، فعرفت أنَّه سيعود، لقول رسول الله ﷺ، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني، فإني محتاج، وعلي عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: **«يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟»**، قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، فقال: **«إنَّه قد كذبك وسيعود»**، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنَّك تزعم أنَّك لا تعود ثم تعود،

(١) السنن الكبرى للنسائي (٩٩٢٨).
(٢) صحيح مسلم (١٩٢١).

فقال: دعني فإني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟، قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنَّه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**»، فقلت: يا رسول الله، زعم أنَّه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «**ما هي؟**»، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولن يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أما إنَّه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟**»، قلت: لا، قال: «**ذاك شيطان**»[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) صحيح البخاري (٢٣١١).

صلاة الجماعة

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالجَابِيَةِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ الله ﷺ فِينَا، فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ**»(١).

للحث على الجماعة، ولزوم جماعة المسلمين معنى عظيم في التشريع الإسلامي، فالجماعة مدعاة للثبات، فالناس يؤازر بعضهم بعضاً ويؤانسونهم، وقد جاء في الحديث عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»(٢)، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. وهذا المعنى يتجسد حقيقة في الصلاة، لذلك جاء في الحث على الجماعة نصوص كثيرة، قال تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة].

وعند النظر إلى الآيات في الأمر بإقامة الصلاة، والثناء على المصلين، نجد أنَّ الخطاب من ربنا تعالى بصيغة الجمع، فلعل من المعاني المرادة هي إقامتها جماعة.

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «**ما من ثلاثةٍ**

(١) جامع الترمذي (٢١٦٥).
(٢) صحيح البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، صحيح مسلم (٦٧٥٠).

في قريةٍ ولا بَدوٍ، لا تُقامُ فيهمُ الصلاةُ، إلا استَحوَذَ عليهمُ الشَّيطانُ، فعليك بالجماعةِ، فإنَّما يأكُلُ الذِّئبُ القاصِيَةَ»(١).

قال زائدة: قال السَّائب؛ يعني بالجماعة: الصَّلاة في الجماعة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنّما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة، وقد كان التّخلّف عن صلاة الجماعة من علامات النّفاق عندهم، كما قال ابن مسعود: (لقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النّفاق)، وكما قال ﷺ: «**بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما**»)(٢).

وقد جاء في السُّنَّة المطهرة أدلة عدة على فضل صلاة المسلم جماعة على صلاته منفرداً، **ومن هذه الأدلة**:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً**»(٣).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٤).

قال بعض العلماء عن فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد: (عزمه عندما سمع النداء بأن يجيبه طاعة، والعزم على إجابة المؤذن طاعة، فأجاب المؤذن فيما قال، وأسبغ الوضوء، ومشى إلى المسجد، ثم دخل المسجد وصلى تحية المسجد، ثم وقف ينتظر الإمام حتى يقيم، ثم ائتم بالإمام وأمَّن وراءه، أو اشترك في تأمينه، وسمع القراءة في الجهرية، واشترك مع الإمام في هذا الجمع، ثم تعرّف على إخوانه، وتآلف مع الآخرين، ورجع من المسجد إلى البيت ماشياً، فهذه حسنات، وكل واحدة تساوي درجة من صلاة الفذ؛ لأنَّ الفذ ليس عنده شيءٌ من ذلك).

---

(١) سنن أبي داود (٥٧٤)، سنن النّسائي (٨٥٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ٢٧٦).

(٣) صحيح مسلم (١٥٠٤).

(٤) صحيح مسلم (١٥٠٩).

قد جاء عن عَبْد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ، أَوْ مَرِيضٌ، إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةَ، وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ»(١).

وعَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً الصُّبْحَ، فَقَالَ: «**أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا، وَلَوْ حَبْواً عَلَى الرُّكَبِ، وَإِنَّ الصَّفَّ الأَوَّلَ عَلَى مِثْلِ صَفِّ الْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا فَضِيلَتُهُ لَابْتَدَرْتُمُوهُ، وَإِنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ، وَصَلَاتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ الرَّجُلِ، وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى الله تَعَالَى**»(٢).

فكلما كثر العدد زاد الفضل؛ لأنَّ كل مصلٍ يدعو ويُشرِك غيره في دعائه، وذلك بقوله: (اللَّهُمَّ اغفر لنا، اللَّهُمَّ ارحمنا، اللَّهُمَّ عافنا)، وكذلك الإمام يدعو للجميع، وقد حذَّر رسولنا ﷺ من ترك الجماعة في أحاديث كثيرة، منها:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقاً سَمِيناً أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ**»(٣).

وأصل صلاة الجماعة أن تكون في المسجد، والمسجد له مكانة عظيمة في الإسلام، ففيه تقام الصلوات الخمس، وفيه يستقبل الوفود، وفيه تعقد رايات الجهاد في سبيل الله.

---

(١) صحيح مسلم (١٥١٩).
(٢) سنن أبي داود (٥٥٤)، سنن النسائي (٨٥١).
(٣) صحيح البخاري (٦٤٤)، صحيح مسلم (١٥١٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

المحافظة على الصلاة

من أهم معاني الصلاة، التي يجب على أهل الإسلام الاعتناء به، والاهتمام به غاية الاهتمام، المحافظة على الصلاة، فهذا المعنى قد أمرنا به ربنا في كتابه، فقال: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة].

وقد امتدح الله المحافظين على الصلاة في أكثر من موضع في كتابه الكريم، فقال: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام]، قال المروزي بعد هذه الآية: (فمن زعم أنَّ من لم يحافظ على الصلاة مؤمن فقد قال بخلاف ما قد دلّ عليه كتاب الله تعالى)[1]، وقال تعالى في سورة المؤمنون، يمتدح أهل الإيمان، ويعدّ صفاتهم التي خصوا بها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون]، وكذلك قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج].

فالمعنى هذا كما تبين هو المحافظة على الصلاة، قال الرازي: (اعلم أنّه سبحانه وتعالى لما بيّن للمكلفين ما بيّن من معالم دينه، وأوضح لهم من شرائع شرعه، أمرهم بعد ذلك بالمحافظة على الصلوات، وذلك لوجوه:

أحدها: أنَّ الصلاة لما فيه من القراءة والقيام والركوع والسجود والخضوع والخشوع، تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال التّمرد عن الطبع، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى، والانتهاء عن مناهيه، كما

(١) المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٠٨٠).

قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والثاني: أنَّ الصلاة تذكّر العبد جلالة الربوبية، وذلّة العبودية، وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة، ولذلك قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

والثالث: أنَّ كلّ ما تقدم من بيان النّكاح والطلاق والعدّة اشتغال بمصالح الدنيا، فأَتْبَع ذلك بذكر الصلاة التي هي مصالح الآخرة...).

إلى أن قال: (أن تكون المحافظة بين المصلّي والصلاة، فكأنّه قيل: احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة، واعلم أنَّ حفظ الصلاة للمصلي على ثلاثة أوجه:

الأول: أنَّ الصلاة تحفظه من المعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء.

الثاني: أنَّ الصلاة تحفظه من البلايا والمحن، قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢]، ومعناه: إنِّي معكم بالنّصرة والحفظ، إن كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزّكاة.

والثالث: أنَّ الصلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصليها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، ولأنَّ الصلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، وهو شافع مشفّع، وفي الخبر: «إِنَّهُ تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غمامتان فَيَشْهَدَانِ وَيَشْفَعَانِ»(١)، ولأنَّ الصلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، وهو شافع

---

(١) صحيح مسلم (١٩١٢)، بلفظه عن النَّوَّاسَ بن سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ**»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**».

مشفّع، وفي الخبر: «سُورَةُ الْمُلْكِ تَصْرِفُ عَنِ الْمُتَهَجِّدِ بِهَا عَذَابَ الْقَبْرِ، وَتُجَادِلُ عَنْهُ فِي الْحَشْرِ، وَتَقِفُ فِي الصِّرَاطِ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَتَقُولُ لِلنَّارِ: لَا سَبِيلَ لَكِ عَلَيْهِ»(١)(٢).

وقد جاء في الحديث الشريف، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، أنه ذكر الصلاة يوماً، فقال: «**من حافظ عليها كانت لو نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن لو نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف**»(٣).

قال ابن القيم: (وإنما خُصَّ هؤلاء الأربعة بالذكر؛ لأنَّهم من رؤوس الكفرة، وفيه نكتة بديعة، وهي أنَّ تارك المحافظة على الصلاة إمَّا أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته من وزارة أو غيرها فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أُبي بن خلف)(٤).

وقد جاء في الأثر عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله عز وجل غداً مُسْلِماً، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ الله عز وجل شَرَعَ لِنَبِيِّهِ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَإِنِّي لَا أَحْسَبُ مِنْكُمْ أَحَداً إِلَّا لَهُ مَسْجِدٌ يُصَلِّي فِيهِ فِي بَيْتِهِ، فَلَوْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَتَرَكْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَمْشِي إِلَى صَلَاةٍ، إِلَّا كَتَبَ الله عز وجل لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، أَوْ يَرْفَعُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ يُكَفِّرُ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نُقَارِبُ بَيْنَ الْخُطَا، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا

---

(١) جامع الترمذي (٢٨٩٠)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، وقال الترمذي بعده: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

(٢) تفسير الرازي.

(٣) مسند الإمام أحمد (٦٥٧٦).

(٤) الصلاة وحكم تاركها، لابن القيم (٥١).

مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ نِفَاقُهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ)[١]، فدل هذا على أنَّ للمحافظة على الصلاة كما أراد الله ورسوله لا بد من أمور:

أولها: المحافظة على أوقاتها.

الثاني: المحافظة عليها جماعة في المسجد مع جماعة المسلمين.

الثالث: المحافظة على تمام أفعالها، والخشوع والحضور فيها.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئاً اسْتِخْفَافاً بِحَقِّهِنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ**»[٢]، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون]، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها)، وهو قول مسروق بن الأجدع وأبي الضحى[٣].

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، قال: قلت لأبي: يا أبتاه، أرأيت قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟، قال: (ليس ذلك، إنَّما هو إضاعة الوقت، يلهو حتى يضيع الوقت)[٤].

قال ابن القيم في تفسير هذه الآية: (وليس السهو عنها تركُها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنَّما هو السهو عن واجبها، إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يَعم النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم الصلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٢٠).
(٢) سنن أبي داود (١٤٢٠)، سنن النّسائي (٤٦٥).
(٣) تفسير ابن كثير، سورة الماعون (٧/ ٦٦٤).
(٤) رواه أبو يعلى (٧٠٤).

الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب)[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتر أهله وماله**»[٢]، **(وُتر أهله وماله)**؛ أي: سُلِبهما، وبقي بلا أهل ولا مال.

ومما جاء في السُّنَّة من التحذير من التفريط في حق الصلاة.

١ ـ عن سمُرة بن جندب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**»، فيقص عليه ما شاء الله أن يُقص، وأنه قال ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وأني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجِع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق**»، وفي آخر الحديث بيَّن الملكان للرسول ﷺ خبر هذا الرجل، والإثم الذي كاف يقترفه فقالا: «**أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يُثلغ رأسه بالحجر، فإنَّه الرجل يأخذ القرآن فيرفُضُه وينام عن الصلاة المكتوبة**»[٣].

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعقِد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقَد، يضرب على مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فأرقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[٤].

---

(١) مدارج السالكين، منزلة الخشوع (١/ ٥٢٤).
(٢) صحيح البخاري (٥٥٢)، صحيح مسلم (٦٢٦).
(٣) صحيح البخاري (٧٠٤٧).
(٤) صحيح البخاري (١١٤٢)، صحيح مسلم (٧٧٦).

٣ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: «**ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه**»، أو قال: «**في أذنه**»[١].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: (أن اجتنبوا الأشغال عند حضرة الصلاة، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً)[٢].

وهناك أمور أخرى لعلها ذكرت في هذا الكتاب في مكان آخر، وبعضها اكتفينا بما يسد مكانها، والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٠)، صحيح مسلم (٧٧٤).
(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٣٥١).

التهاون بالصلاة

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها. ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾؛ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإنَّ العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيَّعها كان لما سواها أضيع)[١].

فمطلوب منا أن نؤدي الصلاة ونقيمها ونحافظ عليها ولا نتهاون بشيء منها، فالتهاون بالصلاة مرض مستشر، وداء ينبغي الحذر منه.

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ بعض الْعلمَاء: الْأَسْبَاب الْمُقْتَضِيَة لسوء الخاتمة وَالْعِيَاذ بالله أَرْبَعَة: التهاون بِالصَّلَاةِ، وَشرب الْخمر، وعقوق الْوَالِدين، وأذى الْمُسلمين)[٢].

وقال الشيخ أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] الصلوات: جمع صلاة، والصلاة لها معنى إسلامي، وهي تلك الهيئة المعروفة، ومعنى آخر وهو الدعاء والتسبيح، والمراد هنا المعنى الإسلامي، وهذا أمر صريح بالمحافظة على الصلاة، وحفظ الصلاة معناه:

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (٥١٧).
(٢) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (١/ ٣٤).

المداومة عليها، والاستمرار على أدائها، وعدم التهاون في ركن من أركانها فالمحافظة على الصلاة تقتضي لَا محالة أمرين:

أولهما: أداؤها باستمرار في أوقاتها من غير تخلف ولا تفريط، وهذا هو الحد الأدنى من المحافظة.

وثانيهما: هو الإتيان بها كاملة الأركان مستوفية للشروط، تشترك فيها النفس مع حركات الجسم، ويشترك فيها القلب مع حركات الجوارح وما ينطق به اللسان، فإن قال في صلاته: **(الله أكبر)** أحس بجلال الألوهية، وعظم الربوبية، وأخلص قلبه للعبودية، وإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ استشعر معاني الشكر والثناء على ذات الله العلية بما هو في طاقة العبد الأرضية، وهكذا في كل ما ينطق به، وفي كل ما يعمل من ركوع وسجود، حتى إنه لَا ينتهي من صلاته إلا وقد صار كله لله، وامتلأت نفسه بهيبته، وقلبه بعظمته، وعقله بنوره، وبذلك يتحقق المعنى السامي في الصلاة، وهو نهيها عن الفحشاء والمنكرات، والتسامي بصاحبها عن متنازع الأهواء.

وهنا بعض الإشارات اللفظية التي لا بد من التصدي لها بإجمال، وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى عبر عن إقامة الصلاة المطلوبة بالمحافظة عليها فلم عدل عن التعبير بإقامة الصلاة إلى التعبير بالمحافظة؟ ولماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ ولم يقل: احفظوا الصلوات؟

والجواب عن السؤال **الأول:** أنَّ المحافظة أو الحفظ تتضمن مع الأداء والإقامة معنى الصيانة والحياطة، فهي فوق ما تدل عليه من طلب الإقامة على وجهها، تدل على أنَّ الصلاة في ذاتها شيء نفيس عزيز تجب حياطته وصيانته، وأنَّ من نال فضل الصلاة فقد نال أمراً عظيماً وخطيراً، وقيِّماً في ذات نفسه.

وأما الجواب عن السؤال **الثاني:** وهو التعبير بالمحافظة بدل الحفظ فهو: أن التعبير بالمحافظة يدل على المداومة، والاستمرار، ولأنَّ الأصل فيه أنَّه يكون للأفعال التي تكون من جانبين مشتركين؛ لأنَّه من مادة المفاعلة التي تدل على المشاركة، وقد تتضمن المنازعة أو المقابلة، والمداومة على الصلاة

فيها هذا المعنى الجليل)[١].

والتهاون في الصلاة له صور عديدة منها:

أولاً: تضييع وقتها، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم].

(قالَ ابن مسعودٍ وإِبراهيم: أَخّروها عن وقتها، وقال سعيد بن المسيب: هو أَنْ لا يصلِّي الظُّهر حتى يأتي العصر، ولا العصر حتّى تغرب الشّمس)[٢].

فمن أضاع الصلاة وتهاون بها فهو لما سواها من الفرائض أضيع وأشد تهاوناً؛ لأنَّ الصلاة هي عماد الدين وأهم فروضه، وخير ما يتقرب به إلى الله، فمن ضيعها، وأقبل على شهوات الدّنيا ومتاعها وملذاتها، توعده الله بالعذاب، ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾؛ أي: خساراً يوم القيامة.

ثانياً: السهو عنها والانشغال بالحياة الدنيا (وقد سبق الكلام عن هذا المعنى).

ثالثاً: عدم اتمام أركانها وواجباتها، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد، وقال: «**ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ**». فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»، ثلاثاً، فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمني؟ فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها**»[٣].

من هذا الحديث يتبين لنا أنه من ترك فرضاً من فروض الصلاة فلا صلاة له لقوله صلى الله عليه وسلم: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»، فإذا كان المرء جاهلاً وجب عليه التعلم لتصح صلاته، ولتقبل منه.

(١) زهرة التفاسير (٢/ ٨٣٨). (٢) تفسير البغوي (٥/ ٢٤١).
(٣) صحيح البخاري (٧٥٧)، صحيح مسلم (٩١١).

وهذا الحكم يكون ملازماً للصلاة في جميع فروضها، ولا يعذر إلا من كان عاجزاً عجزاً حقيقيّاً، فله أن ينتقل إلى غيره بسبب العجز فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كانت بي بواسير فسألت النَّبيَّ ﷺ عن الصلاة، فقال: «**صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب**»(١).

لكن هذا الانتقال من حكم إلى آخر بسبب العجز ينبغي أن يكون بفقه ودراية، قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: (يقول العلماء: المشقة مشقتان: مشقة مقدور عليها، ومشقة غير مقدور عليها، فالمشقة غير المقدور عليها لا يكلف معها إجماعاً وإذا كان الإنسان لا يطيقها، ولا يمكنه أن يأتي بالشيء مع وجودها، فلو أنَّ إنساناً أصابه مرض لا يستطيع معه القيام البتة ـ كالشلل ـ فإنَّه لا يكلف إجماعاً بالقيام.

والمشقة المقدور عليها تنقسم إلى قسمين:

الأول: أن تكون مقدوراً عليها، وفيها حرج وضيق وعناء، والرخصة له أن يترك.

الثاني: أن تكون مقدوراً عليها، ولا يلحق الإنسان بها حرج ولا ضيق، هذه يلزم فيها بالتكليف، ولذلك قال العلماء: سميت التكاليف تكاليفاً لوجود الكلفة والمشقة فيها)(٢). فبعض الناس يترخص برخصة لم يأمر الشارع بها، وقد تكون سبباً لبطلان صلاته، ومن هذه الرخص الذي تساهل بها الناس اليوم ولم تكن معروفه قبل عدة عقود من الزمن، هي رخصة الصلاة على الكرسي، والصلاة على الكرسي فيها تضييع لعدة فروض: ـ

ـ فالقيام لصلاة الفرض فرض على المستطيع لقوله تعالى: ﴿**وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ** ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، وللحديث السابق الذكر: «**صل قائماً**»، وللعبد أنْ يترك القيام إذا تعذر عليه أو وجدت مشقة حقيقية حال القيام، وإلا فمن صلى جالساً وهو قادر على القيام فلا صلاة له، وقد سئل ميمون بن مهران: ما حد

(١) البخاري (١١١٧).
(٢) شرح زاد المستقنع للشنقيطي (بتصرف)، وله شرح صوتي مسموع.

المريض أن يصلي جالساً؟ فقال: (حده لو كانت الدنيا تعرض له لم يقم إليها)[١].

فلا تصح صلاة القاعد المستطيع القيام ولو مع قليل من المشقة (فهذه تكاد لا تخلو منها عبادة من العبادات)؛ بل إنَّ النبي ﷺ عندما صلى قاعداً في آخر مرض له فهو ﷺ إنَّما دخل المسجد يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان بالأرض[٢]؛ (أي: لا يستطيع حمل رجليه من الأرض من شدة المرض).

- ومن تعذر عليه القيام وصلى قاعداً كما في الحديث السابق، فلا يسقط عنه فرض السجود كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة** - وأشار بيده على أنفه - **واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، ولا نكف الثياب والشعر**»[٣]، فهذا حد فرض السجود فمن كان يستطيع السجود (ولو صلى قاعداً) فلا يجزئه الإيماء به؛ بل يجب عليه أنْ يسجد على الأعظُم السبعة وإلا فصلاته باطلة.

- والأمر الآخر أنه من كان يستطيع السجود على بعض الأعظُم السبعة، فليس له ترك السجود بالكلية، ففي الحديث عن أبي هريرة أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم**»[٤].

قال النووي رحمه الله تعالى: (هذا من قواعد الإِسلام المهمَّة ومنْ جوامع الكلم الَّتي أُعطِيَها ﷺ ويدخل فيها ما لا يُحْصَى من الأَحكام، كالصَّلاة بأَنْواعها، فإِذا عجز عن بعض أَركانها أَو بعض شروطها أتى بالباقي وإِذا عجز عن بعض أَعضاء الوضوء أَو الغسل غسل الممكن وإِذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أَو لغسل النجاسة فعل الممكن وإِذا وجبتْ إزالة

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٣/ ٤٨١).
(٢) صحيح البخاري (٦٨١)، صحيح مسلم (٩٦٨).
(٣) صحيح البخاري (٧٧٩).
(٤) صحيح البخاري (٧٢٨٨)، صحيح مسلم (١٣٣٧).

منكرات أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهمْ أَوْ نحو ذلك وأَمكنه البعض فَعَلَ المَمْكن وإِذا وجد ما يستر بعض عورته أَو حفظ بعضَ الفاتحة أَتى بالممْكنِ وأَشباهُ هذا غير منحصرة وهي مشهورةٌ في كتب الفقهِ والمقصود التنبيه على أصل ذلك، وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦])[1]، فمن استطاع السجود على بعض الأعظم السبعة وجب عليه السجود عليها ولا يجزئه الإيماء.

رابعاً: مسابقة الإمام في الصلاة:

وفي هذا أمر مهم جدّاً، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإن صلى قائماً فصلوا قياماً**»[2]، دل هذا على وجوب متابعة الإمام وعدم مسابقته، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أما يخشى أحدكم، أو: ألا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل صورته صورة حمار**»[3]، ففي هذا تحريم شديد من مسابقة الإمام فالواجب أن يتابع الإمام في كل حركاته، ويخص من هذا التكبير والتسليم فمن كبر تكبيرة الإحرام قبل الإمام لم تنعقد صلاته، فيجب عليه إعادة التكبير وإلا بطلت صلاته، وكذلك من سلَّم قبل سلام إمامه بطلت صلاته، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم (٩/ ١٠٢).
(٢) صحيح البخاري (٣٧١)، صحيح مسلم (٩٤٨).
(٣) صحيح البخاري (٦٥٩)، صحيح مسلم (٩٩١).

الاستعانة بالصلاة

روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّه نُعي إليه أخوه قُثَمُ، وهو في سفرٍ، فاسترجع ثمَّ تنحَّى عن الطَّريق، فأناخ، فصلَّى ركعتين، أطال فيهما الجلوس، ثمَّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾، متصلٌ بما قبله، كأنَّهم لما كُلفوا ما فيه من ترك الرياسةِ والإعراضِ عن المال، عولجوا بذلك، والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النُّجْحِ والفرَج، توكلاً على الله تعالى، أو بالصوم الذي هو الصبرُ عن المفطِرات، لما فيه من كسر الشهوةِ، وتصفيةِ النفس، والتوسل في الصلاة والالتجاء إليها فإنَّها جامعةٌ لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة، وسترِ العورة، وصرفِ المال فيهما، والتوجهِ إلى الكعبة، والعكوفِ على العبادة، وإظهارِ الخشوعِ بالجوارح، وإخلاصِ النية بالقلب، ومجاهدةِ الشيطان، ومناجاة الحقِّ، وقراءةِ القرآنِ، والتكلمِ بالشهادة، وكفِّ النفسِ عن الأطيبَيْنِ، حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، كما روي في حديث حذيفة رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر صَلّى»[(١)].

وجاء أيضا من حديث علي رضي الله عنه، قال: «مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ، غَيْرُ الْمِقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ شَجَرَةٍ، يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ»[(٢)].

---

(١) المسند لأحمد (٢٣٢٩٩)، سنن أبي داود (١٣١٩).
(٢) مسند الإمام أحمد (١١٦١)، السنن الكبرى (٨٢٥).

وروي في المجالسة وجواهر العلم للدينوري: كان أحمد بن الْمُعَذَّل إذا حزبه أَمر قام في اللَّيل يصلِّي، ويأْمر أَهله بالصَّلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

ثمَّ ينشد:

أَشْكُو إِلَيْكَ حَوَادِثاً أَقْلَقَتْنِي ... فَتَرَكَتْنِي مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ
مَنْ لِي سِوَاكَ يَكُونُ عِنْدَ شَدَائِدِي ... إِنْ أَنْتَ لَمْ تَكْلأْ فَمَنْ يَكْلانِي
لَوْلا رَجَاؤُكَ وَالَّذِي عَوَّدْتَنِي ... مِنْ حُسْنِ صُنْعِكَ لاسْتَطَارَ جَنَانِي

وقال المروزي في تعظيم قدر الصلاة: (الأمر بالفزع إلى الصلاة، قال أبو عبد الله: وأمَر الله عباده أنْ يفزعوا إلى الصلاة، والاستعانة بالصلاة على كل أمرهم، من أمر دنياهم وآخرتهم، ولم يخصّ بالاستعانة بها شيئاً دون شيء، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وإنَّما بدأ بالصبر قبلها؛ لأنَّ الإيمان وجميع الفرائض والنوافل، من الصلاة وغيرها، لا تتمّ إلا بالصبر، ثمّ قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾، وهم المنكسرة قلوبهم إجلالاً لله، ورهبة منه، فشهد لمن عليه أن يقيمها له، إنَّه من الخاشعين، وكيف لا يفزع المؤمنون إلى الصلاة وهي عماد دينهم، كذلك أخبر النَّبيُّ ﷺ، أنَّ الصلاة عمود الدين)(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مَطردة للأدواء، مقوّية للقلب، مبيّضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشّطة للجوارح، مُمِدّة للقوى، شارحة للصدر، مغذية للروح، منوّرة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقرّبة من الرحمٰن، وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقُواهما، ودفع المواد الرّديئة عنهما، وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بليّة، إلا كان حظّ المصلي منهما أقل، وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيّما إذا أُعطيت حقّها من التّكميل ظاهراً

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢١٨).

وباطناً، فما استُدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا استُجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسرّ ذلك أنَّ الصلاة صلة بالله ﷻ، وعلى قدر صلة العبد بربه ﷻ تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه موادّ التوفيق من ربه ﷻ، والعافية والصحة، والغنيمة والغنى، والراحة والنّعيم، والأفراح والمسرات، كلّها مُحضَرة لديه، ومُسارِعة إليه)(١).

إنَّ من أفضل ما يلتجئ إليه المرء من الأعمال إذا خشي الشدائد، المبادرة إلى الصلاة، ومن أمثلة الالتجاء إلى الصلاة عند الشدائد، ما جاء في قصة ابراهيم عليه السلام مع الملك الطاغية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ ﷻ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ، قَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي، وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ ـ أَوِ: الْفَاجِرِ ـ فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ»(٢)، وجاء في الصحيح أيضاً: لما دخل عليها الملك فأرسل بها إليه، فقام إليها، فقامت توضّأُ وتصلي، فقالت: «اللَّهُمَّ إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلّط علي الكافر»(٣).

ومن أمثلة الاستعانة بالصلاة لقضاء الحاجات، ما جاء عن زكريا عليه السلام،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٠٤).
(٢) صحيح البخاري (٣٣٥٨). (٣) صحيح البخاري (٢٢١٧).

أنه لما أراد أن يطلب حاجته من ربه في أمر لا يقدر عليه غير الرحمٰن الرحيم، قدَّم بين يدي حاجته أنَّه لجأ إلى ربه بالقرب منه وهو في الصلاة، فجاءته البشرى باستجابة دعاءه، وهو لم يبرح من مكانه داعياً ربه، ومتضرعاً إليه فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران]. أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناده إلى جعفر بن سليمان قال: سمعت ثابتاً يقول: الصَّلاة خدمة الله في الأرض، ولو علم الله شيئاً أفضل من الصَّلاة ما قال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى﴾[1].

❀ ❀ ❀

(١) تفسير القرآن لابن ابي حاتم (٣٤٥٤).

الصلاة سبب لحفظ المصلي

قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

فكانت الصلاة هي سبب النهي وهي الحافظة للعبد من الفحشاء والمنكر، وهذا لعمري هو الحفظ وصمَّام الأمان من الفتن والمعاصي.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

وعدهم الله تعالى بالأمان وعدم الخوف عند حلول الأهوال يوم القيامة؛ بل تجدهم فرحين بما آتاهم الله من النعيم المقيم، فلا هم يحزنون على ملذات الدنيا لما رأوه من فضل ربهم، وقد جاء في هذا المعنى أحاديث عديدة:

١ ـ المصلي يكون في ضمانة الله تعالى:

عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاث كلهم ضامن على الله عز وجل: رجل خرج غازياً في سبيل الله فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل**»(١).

معنى **(ضامن):** صاحب الضمان، والضمان: الرعاية للشيء، وقال الطيبي: (عدّي ضامن بـ (على) تضميناً لمعنى الوجوب علي سبيل الوعد؛

(١) سنن أبي داود (٢٤٩٤).

أي: يجب على الله وعداً أن يكلأه من مضار الدين والدنيا)[١].

٢ ـ المصلي في ذمة الله تعالى:

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنّكم الله من ذمته بشيء فيدركه فيكبّه في نار جهنم»**[٢].

فهو في حراسة الله وفي حمايته وحفظه وكلأه، وهذا فضل من الله عظيم، لا يضيعه إلا مفرّط خاسر.

قال المناوي: **(فهو في ذمة الله)** بكسر الذال: عهده أو أمانه أو ضمانه، فلا تتعرضوا له بالأذى، (فلا يتبعنكم الله) ولفظ رواية مسلم: **(فلا يطلبنكم الله)**، وفي رواية الترمذي: (فلا تخفروا الله بشيء من ذمته) قال ابن العربي: (هذا إشارة إلى أنَّ الحفظ غير مستحيل بقصد المؤذي إليه لكن الباري سيأخذ حقه منه في إخفار ذمته فهو إخبار عن إيقاع الجزاء لا عن وقوع الحفظ من الأذى، وقال البيضاوي: ظاهره النهي عن مطالبته إياهم بشيء من عهده، لكن المراد نهيهم عن التعرض لما يوجب المطالبة في نقض العهد وإختفار الذمة لا على نفس المطالبة، قال: ويحتمل أنَّ المراد بالذمة الصلاة المقتضية للأمان، فالمعنى: لا تتركوا صلاة الصبح ولا تتهاونوا في شأنها فينتقض العهد الذي بينكم وبين ربكم فيطلبكم الله به، ومن طلبه الله للمؤاخذة بما فرّط في حقه أدركه، ومن أدركه كبّه على وجهه في النّار، وذلك لأنَّ صلاة الصبح فيها كلفة وتثاقل فأداؤها مظنة إخلاص المصلي والمخلص في أمان الله)[٣].

٣ ـ الصلاة عصمة من الشيطان:

يقول ﷺ: **«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»**[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: (تالله مَا عدا عَلَيْك الْعَدو إِلَّا بعد أَن تولى عَنْك الْوَلِيّ فَلَا تظنّ أَن الشَّيْطَان غلب وَلَكِن الْحَافِظ أعرض احذر نَفسك فَمَا

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (٣/ ٩٤٨).
(٢) صحيح مسلم (٦٥٧).
(٣) فيض القدير (٦/ ٢١٢).
(٤) مسند الإمام أحمد (٢٧٥١٤).

أَصَابَك بلَاء قطّ إِلَّا مِنْهَا وَلَا تهادنها فوَ الله مَا أكرمها من لم يهنها ولا أعزها من لم يذلها ولا جبرها من لم يكسرها ولا أراحها من لم يتبعها، ولا أمنها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها، سُبْحَانَ الله ظاهرك متجمل بلباس التَّقْوَى وباطنك باطية لخمر الْهوى، فَكلما طيبت الثَّوْب فاحت رَائِحَة الْمُسكر من تَحْتَهُ فتباعد مِنْك الصادقون وانحاز إِلَيْك الْفَاسِقُونَ، يدْخل عَلَيْك لص الْهوى وَأَنت فِي زَاوِيَة التَّعَبُّد، فلا يرى مِنْك طرداً لَهُ، فَلَا يزَال بك حَتَّى يخْرجك من الْمَسْجِد أصدق فِي الطّلب، وَقد جاءتك المعونة، فَقَالَ رجل لمعروف: عَلمنِي الْمحبَّة، فَقَالَ: الْمحبَّة لَا تَجِيء بالتعليم:

هُوَ الشوق مدلولاً على مقتل الفنا إِذا لم يعد صبا بلقيا حَبِيبه

لَيْسَ العجيب من قَوْله يحبونه إِنَّمَا الْعجب من قَوْله يُحِبهُمْ، لَيْسَ الْعجب من فَقير مِسْكين يحب محسنا إِلَيْهِ إِنَّمَا الْعجب من محسن يحب فَقِيراً مِسْكيناً)[(١)].

٤ ـ المصلي في كفاية الله:

عن نُعيم بن هَمَّار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله ﷻ: ابن آدم لا تعجزني من أربع ركعات في أول نهارك أكفك آخره**»[(٢)].

---

(١) الفوائد (٦٨).

(٢) سنن أبي داود (١٤٢٨٩) وقال المنذري: (وقد أخرجه الترمذي من حديث أبي الدرداء وأبي ذر، وقال: حسن غريب. هذا آخر كلامه. وفي إسناده: إسماعيل بن عَيّاش، وفيه مقال، ومن الأئمة من يصحح حديثه عن الشاميين، وهذا الحديث شامي الإسناده وحديث نُعيم بن هَمَّار: قد اختلف الرواة فيه اختلافاً كثيراً. وقد جمعتُ طرقه في جزء مفرد. وحمل العلماء هذه الركعات على صلاة الضحى، وقال بعضهم: النهار يقع عند أكثرهم على ما بين طلوع الشمس إلى غروبها. وأخرجه أبو داود والترمذي في باب صلاة الضحى. وذكر بعضهم: أن نعيم بن همار روى عن النبي ﷺ حديثاً واحداً، وذكر هذا الحديث. وقد وقع لنا أحاديث من روايته عن رسول الله ﷺ غير هذا. وقد قيل في اسم أبيه: هَبّار، بالباء الوحدة، وهدار، بالدال المهملة، وهمام، بميمين، وخمار، بالخاء المعجمة المفتوحة، وحمار، بالحاء المهملة المكسورة).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: **(أكفك آخره)**: أي: شغلك وحوائجك، وأدفع عنك ما تركه بعد صلاتك إلي آخر النهار. وأقول: لعل الأنسب أن يقال: المعنى يا ابن آدم! فرغ بالك أول النهار، واشتغل بعبادتي حتى أفرغ بالك في آخر النهار بقضاء حوائجك، ودفع المضار عنك)[١].

٥ ـ الصلاة حافظة لصاحبها من عذاب القبر:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الميت إذا وضع في قبره، فإنَّه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه ـ يعني: يأتيه العذاب من قبل الرأس ـ فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل ـ يعني: لا توجد ثغرة كي ينفذ منها العذاب إلى هذا الرجل ـ ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف إلى النَّاس: ما قبلي مدخل.....**»[٢]، فدل هذا على أنَّ الصلاة تأتي في مقدمة الأعمال الصالحة التي تحفظ صاحبها من عذاب القبر، وفي هذا نكتة لطيفة: وهي أنَّ الصلاة لما كانت أول الفرائض وأول أركان الإسلام بعد التوحيد، ولمكانتها وعلو شأنها في الدين كانت هي أول من ينافح على من حافظ عليها، وكانت أيضاً عند أهم أعضائه وهو الرأس.

٦ ـ الصلاة حرمة للعبد من النَّار:

جاء في حديث طويل عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**وحرم الله على النَّار أنْ تأكل أثر السجود، فيخرجون من النَّار فكل ابن أدم تأكله النَّار إلا أثر السجود...**»[٣].

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (٤/ ١٢٤١).
(٢) صحيح ابن حبان (٣١١٣)، المستدرك للحاكم (١٤٠٣).
(٣) صحيح البخاري (٨٠٦)، صحيح مسلم (٤٦٩).

وفيه أيضا عن عماره بن رؤبية الثقفي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يلج النار من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**»(١)؛ يعني: الفجر والعصر.

٧ ـ الصلاة عصمة للعبد من حر يوم القيامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إنِّي أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه**»(٢).

(١) صحيح مسلم (٦٤٣).
(٢) صحيح البخاري (٦٢٩)، صحيح مسلم (٢٤٢٧).

الركون الى الدنيا

❊ (هذا الباب خطر على البال ذكره لأنَّ الركون إلى الدنيا هو المانع الأول من إقامة الصلاة).

اعلم أخي المسلم أنَّ الله تعالى لم يخلقنا عبثاً قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]، وإنَّما خلقنا لأجل غاية عظيمة، ومهمة سامية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

إذا عُلِمَ هذا؛ فإنَّ كثيراً من النَّاس اليوم قد انشغلوا عن هذه الغاية العظمى إلى سفاسف الأمور، فانشغلوا بالحياة الدنيا عن الآخرة، وانشغلوا بجمع الأموال، وعمارة البيوت، والتكاثر في متاع الدنيا وزخرفها، وكأنَّهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر].

فتجدنا اليوم وفي ظل هذا الانفتاح للدنيا والتزاحم المادي والتطور الحياتي والاختراعات الإلكترونية وكثرة الأموال، أصبحت الدنيا شغلنا الشاغل، وهمنا الوحيد، على غير ما كان عليه رسولنا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، فقد جاء في الحديث عن حنظلة الأسيدي وكان من كُتّاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنَّار والجنَّة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنّا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً، فقال

رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنَّه لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» ثلاث مرات[(١)].

فكان أصحاب رسول الله ﷺ ينكرون قلوبهم إذا انشغلوا بمتاع الدنيا عن ذكر الله والدار الآخرة، ونحن اليوم صرنا نستغني عن صلاتنا وذكرنا لربنا بأدنى متاع من هذه الحياة (إلا ما رحم ربي)، وصار تزاحمنا على الحياة الدنيا وملذاتها أعظم صارف يصرفنا عن عبادة الله والصلاة خاصة، فإذا كان في من سبقنا من أهل العبادات من يقول: (استغفارنا بحاجة الى استغفار)[(٢)] بعد عبادة يومين أو ثلاثة بصيامها وقيامها، خشية الاغترار بالعبادة، فما عسانا أن نقول نحن، إذا كنا لا نستغفر الله إلا حين يخبرنا من يخبرنا أنه سبب لكثرة المال والأولاد، ولا نصلي إلا حين نخبر بأنّ الصلاة مجلبة للرزق، ولا نقرأ القرآن إلا حين يقال لنا: أنّ فيه ينال الرزق والمال، ثم بعد هذا الاستغفار والصلاة والقرآن المشروطة بسعة الرزق وانقضاء الحاجات وتمام الصحة ودوام العافية وغيرها من الشروط الكثيرة، وإن لم نحصل على ما اشترطنا من عبادتنا ننسب الخلل إلى الآيات والأحاديث (حاشا لله ولرسوله)، ونسينا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج].

مما سبق يتبين لنا معنى قول رسولنا محمد ﷺ وهو أعلم بما ينفعنا وما يضرنا، كما جاء عن عمرو بن عوف وهو حليف لبني عامر بن لؤي، وكان شهد بدراً مع النَّبيِّ ﷺ، أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان الرسول ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له،

(١) مسلم (٧١٤٢).
(٢) ينسب هذا القول إلى رابعة العدوية رحمها الله تعالى.

فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أنَّ أبا عبيدة قدم بشيء**». قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبشروا وأمّلوا ما يسركم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

فالتنافس على الدنيا سبب الهلاك والفساد، وسبب الخذلان، وسبب البعد عن الله تعالى، وحين ذمّ الله بني اسرائيل في القرآن كان من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

قال محمد الأمين الشنقيطي: (إِنَّ الإنسان لو متّع ما مُتِّع من السنين، ثُم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب أَنّ ذلك المتاع الفائت لا ينفعه، ولا يغني عنه شيئاً بعد انقضائه وحلول العذاب محله. وذلك في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء]، وهذه هي أَعظم آية في إِزالة الدَّاء العضال الذي هو طول الأَمل. كفانا الله والمؤمنينَ شرَّهُ)(٢).

وفي هذا المعنى من التحذير من الركون إلى الدنيا على حساب الآخرة آيات في كتاب الله كثيرة لمن تدبرها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾ [النجم].

وورد في سُنَّة رسول الله ﷺ عدة أحاديث في هذا، ومنها: ما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أَمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأْته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيّته جمع الله له أَمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»(٣).

ومن هذا ما يروى: (أنّ سليمان بن داود عليه السلام عرض الخيل بالعشي،

(١) البخاري (٣٧٩١، ٦٠٦١)، صحيح مسلم (٧٤١٤).
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٤٢).
(٣) سنن ابن ماجه (٤١٠٥).

فأَشغله النظر إِليها عن صلاة العصر حتى تأَخر وقتها، فأَسف وندم، فعاقب نفسه بأَن حرمها الخيل التي أَشغلته حتى جاوز وقت صلاته، فاعترضها يضرب أعناقها عقوبة لنفسه ليغم عليها بدلاً من لهوه بها حين اعترضها، فأَلهاه النظر إلى حسنها وسرعة سيرها، فلما عاقب نفسه بتضريبه أَعناق الخيل شكر الله له ذلك فعوضه من الخيل الريح، أَسرع في السير، وأَوطأُ في الركوب من فوقها، وأَشرف في القدر، وأَرفع في المنزلة، وأَعجب في الأحدوثة)[(١)].

ونحن اليوم بأمس الحاجة للرجوع إلى ربنا، والترفع عن حطام الدنيا رغبة بما عند الله، فليكن قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، هو خيارنا من هذه الحياة، وفلاحنا في الدنيا والآخرة، قال السمرقندي: (﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنَّة من تزكى؛ يعني: وحّد الله تعالى، وزكى نفسه بالتوحيد، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾؛ يعني: توحيد ربه ﴿فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ مع الإمام الصلوات الخمس، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾؛ يعني: كبّر وصلى لله تعالى، ويقال: ﴿مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: تاب من الذنوب، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾؛ يعني: إذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة ثم ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾؛ يعني: تختارون عمل الدنيا على عمل الآخرة، ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ يعني: عمل الآخرة خير وأبقى من الاشتغال بالدنيا وزينتها، ويقال معناه: يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية، وإنّ عيش الآخرة خير وأبقى؛ لأنَّ في عيش الدنيا عيوباً كثيرة: خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع، وما أشبه ذلك وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب، لأجل هذا قيل خير من الدنيا)[(٢)].

قدمنا بهذا المعنى لنجعل لعباداتنا أوقاتها التي أمر الله بها، ولا نقدم

---

(١) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (٤١).
(٢) بحر العلوم، للسمرقندي (٣/ ٥٧٢)، بتصرف قليل.

عليها شيئاً من أعمال الدنيا، ولنجعل ما نتقرب به إلى ربنا من أولى الأولويات في حياتنا، ولنتقرب بعباداتنا إلى ربنا خالصة لا يشوبها شيء من أمور الدنيا وزخرفها، ولنعلم أنَّ الدنيا متاع زائل، ولا ينفعنا منها إلا ما نتقرب به إلى الله تعالى.

الخاتمة

بعد أنْ بيّنا ما استطعنا بيانه من أمور الصلاة، فلنعلم أنَّ من أفضل عباداتنا، وأولى قربنا، وأهم أعمالنا هي الصلاة، فلتكن صلاتنا شعارنا في حياتنا، وقرة أعيننا، وموطن سعادتنا، وآمرنا بالمعروف، وناهينا عن الفحشاء والمنكر، ومكفرة لخطايانا، وموضع دعائنا، ومحل خشوعنا وانكسارنا لربنا، وقربنا من خالقنا وقربتنا إليه، ونورنا في الحياة الدنيا ويوم القيامة، ورجحان موازيننا، ولذة النظر إلى ربنا، وممرنا على الصراط، وبابنا لدخول الجنة إن شاء الله تعالى.

وليكن في صلاتنا حسن اتباعنا لنبيِّنا وحبيبنا ﷺ، فهي قرة عينه، ومفزعه إلى ربه، وراحته من نكد الدنيا، وأنسه بقربه من ربه، وأمرته من ربه إلى أهله، وهي آخر وصيته في أمته.

وكذلك كانت الصلاة للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فكانت ملجأ خليل الله ودعوته لذريته، وهي أمر الذبيح لأهله، وهي الوسيلة بين زكريا وربه، وهي مفزع داود وسبب مغفرته، وهي وصية الله لعيسى وهو في مهده.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة